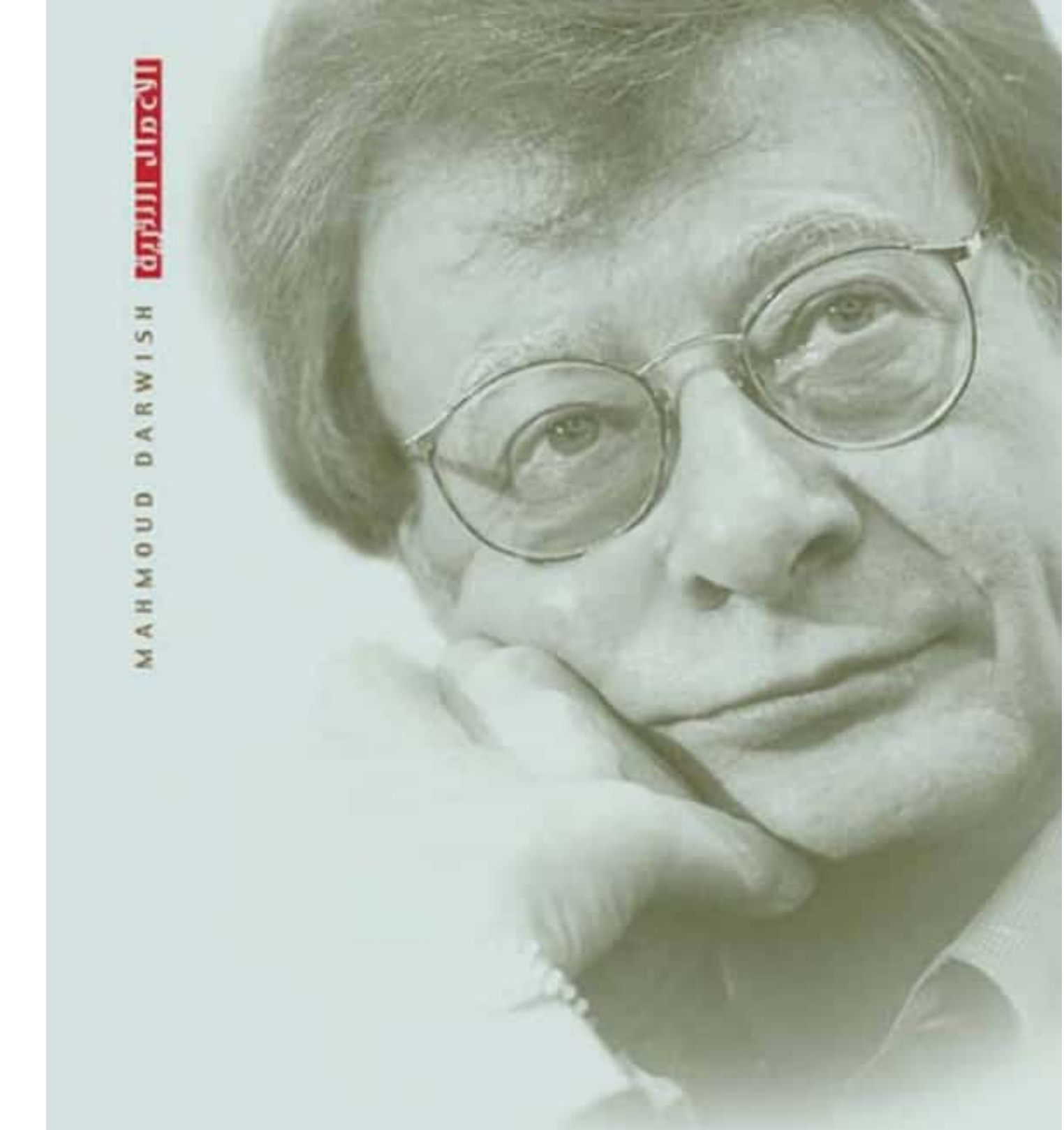

الأعمال النثرية

MAHMOUD DARWISH

وَداعًا أيتها الحَرْبُ، وَداعًا أيها السلام

محمود درويش

وداعاً أيتها الحرب ،
وداعاً أيها السلام

شعر

دار الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

أوَّلاً:

حصَان يحبُّ غزالة ...

• كانوا يقدمون له هدية السنة الجديدة. كانوا يزفون له بشرى: سينقل من غرفة التعذيب إلى الزنزانة. مسيح بلا مسامير. وفي الجدران نافذة صغيرة تطل على بحر.

لم يكن له زمن من قبل. الآن يرسم خيوطاً صاعدة هابطة، وفقاً لقدرة أصابعه التي صارت بلا أظافر. خيوط هابطة صاعدة يلتقي بعض أطرافها، سهواً، ليشكل افتتاحيات دوائر. وعلى سطح البحر نسمة تمارس اللعبة إياها. لم يكن له زمن من قبل. والآن يعرف: هنا الساعة الأولى من اليوم الأول، من الشهر الأول، من العام الأول.

- ماذا حدث؟
- أنتقل من مكان آخر إلى.. زمن آخر.
- وماذا يعني هذا الانتقال؟
- يعني أني أبدأ. أتحكم بالدوامة.
- ولكنك لم تنتقل. السجانون هم الذين نقلوك.
- هذا لا يغير شيئاً. القيد يصقل الزند. وهكذا أعرف.
- ماذا تعرف؟
- إن العصافير ليست حرة. وإن الوطن يولد في منفى. إني أروض حالتي وألتصق بالبعيد. وزندي يتحرر في قيدي.

• وكان الوطن كقدم طفل، محبوساً في حذاء حديدي. وكان سرحان لا يعرف أكثر من ذلك. هذا يكفي – كان يقول. لأن الاعتراف بما هو أبعد يفيد المحققين ويوسع العبارة.

كانوا ينقبون كل ذرة من ذرات كيانه، ويدخلون الأنابيب الدقيقة الحادة في مسام جلده، بحثاً عن فكرة الوطن. وحين كانوا يتعبون من النزهة في الجسد الضعيف، كانوا يسدون المسام المتسعة بافتتاحيات صحف تحتج على الانتهاك، ثم يغطونها بطحين جاء من كندا، ويخبئون الجسم كله، بما فيه من أسرار وغابات، بقماش متبرعين يحبون الكلاب ويعطفون على الناس المساكين.

كان الوطن كقدم طفل. وكانوا يبحثون بين المفاصل. وسرحان لا يفهم ولا يعترف لأنه، فعلاً، لا يعرف. «اذهبوا إلى

الخارطة واتركوني.» ولكن حين أقاموا له خيمة في الزنزانة حوَّلها إلى خارطة. وكانت هوامشها يوميات. قالوا: «في الجنة أيضاً تجد خيمة». قال: «في الجنة أيضاً أحولها إلى خارطة، وهوامشها مرثيات».

لم يجدوا الفكرة في لحمه المتفتت بين أصابعهم. كانوا يرسمون على جسمه خطوطاً هابطة صاعدة تلتقي أطرافها في دوائر تشكل خارطة. صرخوا من الألم كأن الخطوط التي رسموها قنبلة تنفجر بهم. هب آخرون لنجدتهم وقالوا: وجدناها. وجدنا فكرة سرحان. ولكن الوقت كان متأخراً. ونقلوه، ثانية، إلى الزنزانة.

- حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من حارس

للحيلولة دون الزفاف.

- كانت عقارب الساعة تشير إلى: جبل، ورصاصة، وشهيد.

ثم تحركت إلى سهول، ورصاص، وشهداء

ثم تحركت إلى بيوت، ورصاص، وشهداء، وقتلى، وأعراس، ومآتم

وصار لسرحان زمن.

- بين الليل والليل فاصلة أتربص بها. تفلت من أطراف أصابعي، وتسقط في الماء.

وهذه قطرة من دمي أقدمها مساحة تفصل بين يومين فيتحولان إلى عهدين.

قطرة دم واحدة، منذ هذا التاريخ، تجعل اليوم الذي يسبقها عهداً ينزل إلى الماء لا ليغتسل بل ليغرق.

وهذه قطرة أخرى، أقدمها لكي لا تبقى الخارطة ورقاً بلا نبات وجداول.

وهذا دمي كله. أصبه كله للشجرة التي ما زالت نائمة في التراب، فتنبت الشجرة.. وأتحرر من دمي القديم الذي جاء من القمح الكندي والجبن الهولندي.

تخرج قدم الطفل المحبوسة في حذاء المنفى الحديدي..

يصير الوطن أصغر وأقرب..

يصير الوطن في حجم القبلة وفي مسافة الطعنة.

فليعبر نشيد دمي جسر الحيرة وخيانة السيف. ليعبر نشيدي أناقة الوزن، ويحقق الانسجام في الفوضى. ليعبر نشيدي خفيفاً كسكتة القلب، عنيفاً كرحيل السفن. ولتلتئم ذراعان ضاعت إحداهما في الغابات والأخرى في البحر. ليعبر نشيدي!.

- أنت مغامر يا سرحان.
- نعم.
- أين الفكرة؟
- خرجت مني وصارت صخرة.
- لقد نسفنا الصخرة. كانت معبأة فدائيين وماتوا. لقد نسفنا الصخرة.
- أعرف ذلك. ولكن الصخرة لم تمت.
- رأيناها تطير في الهواء ذرات ذرات.
- لقد خرجت من الأرض وصارت فكرة.

تعبوا منه. تعبوا كثيراً. وصار كل فريق مشغولاً بيومه. سرحان يحاول الإمساك باللحظة الفاصلة بين الليل والنهار. والسجانون يفتشون عن الفكرة في الصخرة، وعن الصخرة في الفكرة. ويحاولون الإمساك بالفارق بينهما. ثم يعودون إلى جسد سرحان الذي فرغ من الدم فتكاثرت حوله الفراشات.

- من هذه النافذة يبتدئ البحر، ويمشي دمي.

الصيف والشتاء ذراعان تنغلقان على وطن.

إذا فتحوا مسام جلدي، مرة أخرى، تحول الفراش المتطاير منها إلى أطفال يولدون.

نجوت من حوادث الطرق، لأني لا أمشي على طرق. حيث تحط قدمي تكون طريق.

لا ضجيج قبلي، ولا هدوء بعدي. يجب أن تحفظوا اسمي جيداً، فقد تصابون باسمي، قد تصطدمون باسمي فينفجر بكم.

الوقت هو زفيري وشهيقي. حطموا الساعات. واعرفوا مواعيد المطر من النحل الذي يحوم حول جراحي. وإذا جاءكم السنونو، في غير موعد، قولوا: تنفس.

كل شيء يتغير. وأنا أدشن زمني، ويقفز إليّ وطني كأسير في حضن زوجة.

وهذا سفر تكويني: في الساعة الأولى، من اليوم الأول، من عمر الرصاصة الأولى، كانت الصحراء تنزل عن عنقي وتتعلم الأبجدية. كانت تقرأ كتاب الشجرة بقلم رصاصة. وكان الجبل العانس يتزوج رصاصة.

كان الوطن كله يختبئ خلف رصاصة.

انطلقت... فآفاق.

ومن هذه النافذة يبتدئ البحر، ويمشي دمي.

• يذهبون إلى الحرب. كما يذهب الحصان العاشق خلف الغزالة الشاردة.

منذ تسع سنوات والحُبّ يتصاعد: أعراساً ومآتم. والزنزانة تذوب تذوب.

وفي هذه الليلة أين وصلت؟

- أعطيت الحلمَ قدمي، فسار معي. لم يعد وطني لا أمامي ولا ورائي.

- أين هو إذن؟

- يجب أن تفصلوا البحر عن الدم لكي تضعوا حدوداً بين جسمي ووطني. ألا تشعرون بالخوف!.

كانت أجراس الميلاد تدق. وكان المسيح يملأ الليلة والعالم. وكان حوار الصخرة والفكرة يجعل الصلاة نزيفاً، ويحول النزيف إلى صلاة.

مد سرحان يده إلى صدره، فأخرج منه القدس. وضعها أمامه. ثم قام ومشى على السور. «لم أتأخر كثيراً. دمي وصل».. كان يمتد من الزنزانة إلى الأفق، ويشكل قوساً نصف دائري. وكانت الريح تتحول إلى أسلاك تلتفت على حراسها وتجعل المسافة بين الحصان والغزالة رؤية واضحة.

حصان يحب غزالة

لا بد من ريح

ولا بد من فارس

ليتم الزفاف.

محاولة رثاء بركان

اكتملت رؤياك، ولن يكتمل جسدك. تبقى شظايا منه ضائعة في الريح، وعلى سطوح منازل الجيران، وفي ملفات التحقيق.

ولم يكتمل حضورنا نحن الأحياء – طبقاً لكل الوثائق. نحن الأحياء مجازاً. وأنت الميت – طبقاً لكل الوثائق. أنت الميت مجازاً.

نحزن من أجلك؟ لا.

نبكي من أجلك؟ لا.

أخرجتنا من صف المشاهدين دفعة واحدة وصرنا نتشوف الفعل، ولا نفعل.

أعطيتنا القدرة على الحزن، وعلى الحقد، وعلى الانتساب. وكنا نتعاطى الحزن بالأقراص، ونتعاطى الحقد بالحقن، ونتعاطى الانتساب بالوراثة.

مرة واحدة أعطيتنا القدرة على الاقتراب من أنفسنا، وعلى الرغبة في الدخول إلى جلودنا التي خرجنا منها دون أن ندري. الآن ندري – حين خرجت منا.

من أنت يا غسان كنفاني!

حملناك في كيس، ووضعناك في جنازة بمصاحبة الأناشيد الرديئة، تماماً كما حملنا الوطن في كيس، ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الآن، وبمصاحبة الأناشيد الرديئة.

كم يشبهك الوطن!

وكم تشبه الوطن!

والموت دائماً رفيق الجمال. جميل أنت في الموت يا غسان. بلغ جمالك الذروة حين يئس الموت منك وانتحر. لقد انتحر الموت فيك. انفجر الموت فيك لأنك تحمله منذ أكثر من عشرين سنة ولا تسمح له بالولادة. اكتمل الآن بك، واكتملت به. ونحن حملناكم – أنت والوطن والموت – حملناكم في كيس ووضعناكم في جنازة رديئة الأناشيد. ولم نعرف من نرثي منكم. فالكل قابل للرثاء. وكنا قد أسلمنا أنفسنا للموت الطبيعي.

أيها الفلسطينيون... احذروا الموت الطبيعي!. هذه هي اللغة الوحيدة التي عثرنا عليها بين أشلاء غسان كنفاني.

ويا أيها الكثاب... ارفعوا أقلامكم عن دمه المتعدد! هذه هي الصيحة الوحيدة التي يقولها صمته الفاصل بين وداع المنفى ولقاء الوطن.

لا يكون الفلسطيني فلسطينياً إلا في حضرة الموت. قولوا للرجال المقيمين في الشمس أن يترجلوا ويعودوا من رحلتهم، لأن غسان كنفاني يبعثر أشلاءه ويتكامل. لقد حقق التطابق النهائي بينه وبين الوطن.

أهكذا؟. نعم هكذا – حين تزول الفوارق بين الأجساد وبين الأوطان – ويصير الكل في كيس واحد، تنزل العودة من الأناشيد الرديئة إلى البندقية الجيدة، ولا تكون الحياة مجازية. وهكذا – تكون الهجرة شكلاً محوراً للعودة.

أمجد موتك؟ لا.

ألعن حياتك؟ لا.

إني أمجد السخرية التي كنت تواجه بها الحياة. نادر في تحايلك على الحياة. تنزفها تنزفها لا حباً لها بل بحثاً عنها. من خرج من عكا يوماً ولم يعد، لا يعامل الحياة إلا بسخرية.

إني أمجد البسمة الكاذبة التي كنت تقابل بها الأشياء – وهي باطلة كلها – فمن عرف فلسطين تاب عن السعادة. وفلسطين التحمت بخلاياك. تبتسم لسواها كالعاشق المخدوع الذي يتحايل على الخيانة، ويحاول الهرب من قلبه.

لم تكن رجلاً.

كنت إنسانية.

ولم تحمل صليباً، كمتظاهر يحمل لافتة وراية.

صليبك لا يراه أحد. حتى أنت لا تراه. لأنه يأتيك من الداخل. لأنه يسكنك، كما يسكن البرق المفاجأة، وكما يسكن الكون الديمومة.

كان الصليب ينتسب إليك.

وكان الوطن ينتسب إليك.

وهما البديلان الوحيدان.

ليس جمال الموت ما يجعلك جميلاً، فبأي حق يستعيرك، ويتركنا بلا ندم؟

ليس جمال الموت، ولكنه حقيقة المأساة في لحم إنسان حقيقي وفنان حقيقي. الصدق اغتراب، فلماذا كنت مغترباً إلى هذا الحد؟

باعوا الضحية فاشتكت، فاجتمع الغزاة والطغاة على إخماد شكواها،

لأن سلامتهم واحدة.

فلماذا ولدت عكا؟ لماذا ارتكبت هذا الإثم!. جرّب – يا غسان – واخرج من اسمها. ستخدعك الحياة من جديد. وتموت. تضيق بها ذرعاً، ومن فرط العشق والغيرة تكرهها. ولكن، ماذا تكون من دونها! فلماذا ولدت في فلسطين؟ لماذا ارتكبت هذا الذنب؟. جرّب – يا غسان – جرّب أن تذهب في هواها إلى آخر الشوط؟ ستخدعك الحياة من جديد. وتموت من جديد.

الابتعاد عنها – قاتل

والاقتراب منها – قاتل.

وبين الاقتراب والابتعاد يتأرجح جسمك. الارتفاع يوازي الضياع. والنزول يحاذي الأفول.

وهذه هي المأساة.

وهذه هي قدرية العشق الفلسطيني.

لأن المعشوقة قاتلة بجمالها، ونسيانها، وقدرتها على الخيانة.

تكتبها. ترسمها. تغنيها. تغامرها. وهي تنام في أذرعة الآخرين.

وحين تقول: تعبت، تحاصرك كالجلد. ولعلك كنت تهددها، ولعلك كنت تؤنبها: حين أنام فيها سأرميها في البحر كقشرة برتقالة.

لا تعطيك هذه الفرصة... لا تعطيك.

أكثر من عشرين عاماً، وأنت تنتظر هذه الفرصة. لاتعطيك. ويا غسان كنفاني. للمناسبة، قل لي من أنت؟

غامض، وعاجز عن الاجابة، لأنك فلسطيني حقيقي. كلما اشتد وضوحك اشتد غموضك.

تنسى نفسك في البحث عن الوطن. وينساك الوطن في بحثك عن نفسك، ثم تلتقيان يومين في اليوم. في اليوم الواحد تلتقيان أمس وتلتقيان غداً.

وما الفرق بينكما؟. هو الفارق بين ظل الشجرة في الدم وبين ظل الشجرة في الماء.

فلسطيني حتى أطراف أصابعك، فلسطيني حتى الحماقة. وهذا هو مجدك إذا كان المجد يعنيك.

تسلم على السائح، فتصيبه عدوى فلسطين.

تقبل امرأة، فتصير مريم المجدلية.

تعانق طفلاً، فيستكمل طفولته في إحدى قصصك.

وهذا هو مجدك إذا كان المجد يعنيك.

من أنت؟ غامض وعاجز عن الإجابة. فكلما اشتد وضوحك اشتد غموضك.

لم تمتشق قلماً...

لم تمتشق بندقية...

لم تمتشق إلا دمك. كان دمك مكشوفاً من قبل أن يُسفك.

ومن رآك رأى دمك. هو الوحيد الواضح. الوحيد الحقيقي والوحيد العربي. دق سقف الهجرة وعاد كالمطر الذي يهطل فجأة من سماء النحاس على أرض القصدير. فهل سمعنا رنينه؟ هل سمعنا صداه؟

سمعناه يا غسان، فكيف نثأر له؟. وحين نقول فلسطين، فماذا نعني؟ هل فكّرنا في هذا السؤال بمثل هذا الخجل من قبل؟ الآن نعرف: أن تكون فلسطينياً معناه أن تعتاد الموت، أن تتعامل مع الموت... أن تقدم طلب انتساب إلى دم غسان كنفاني.

ليست أشلاؤك قطعاً من اللحم المتطاير المحترق. هي عكا، وحيفا، والقدس، وطبريا، ويافا. طوبى للجسد الذي يتناثر مدناً. ولن يكون فلسطينياً من لا يضم لحمه من أجل التنام الأشلاء من الريح، وسطوح منازل الجيران، وملفات التحقيق.

ماذا نفعل... ماذا نفعل من أجلك؟

هكذا تساءلنا. ونسينا أن نتساءل عما نفعل من أجل ما ومن تبقّى منا.

وكنا نرد: نحرق مكاتبنا ونمضي... نمضي إلى أين؟ نمضي إليك... إلى الثورة. نخرجها من رحم الفكرة والأحلام والأناشيد، لأن دمك قد خرج. الذاكرة والخارطة والأغاني لا تحوّل المنفى إلى وطن. ولم يبق لنا غير الانتماء إلى الثورة وأخطائها. لا يكون العشق عشقاً إلا إذا بلغ حد الخطأ. فلنذهب إلى الخطأ جميعاً، لأنه فاتحة الصواب. ولنملأ الأطر التي تركها غسان، حتى لا يكون وحيداً ولا يتيماً ولا حزيناً. لقد تحول من شكل إلى رؤيا. فلندخل مرحلة التحوّل.

وطوبى للقلب الذي لا توقفه رصاصة. لا تكفيه رصاصة!

نسفوك، كما ينسفون جبهة، وقاعدة، وجبلاً، وعاصمة.

وحاربوك، كما يحاربون جيشاً...

لأنك رمز، وحضارة جرح.

ولماذا أنت... لماذا أنت؟

لأن الوطن فيك صيرورة مستمرة وتحوّل دائم. من سواد الخيمة حتى سواد النابالم. ومن التشرد حتى المقاومة.

حقيقي وشفاف...

وابتكار لأنهار منحوتة مياهها من دماء مهاجرة. خريرها دائماً محترق، يتمازج فيها ظل الزيتون الراحل بين الذاكرة والتراب.

لو وضعوك في الجنة أو جهنم، لأشغلت سكانهما بقضية فلسطين.

وجدان، وعاطفة، ووسامة.

وعكا تنتمي إليك

ولأن غيابك يجعل الوطن أبعد، فعندما ينسفونك... ينسفون خطى تتقدم – هكذا يحسبون.

ويا غسان، حدد شكلك!

من طول الرحيل سقطت ذنوبي. ومن بعد الوطن اقتربت من الحقيقة. وشكلي ضائع فيكم.

وما اسمك الآن؟

لاشيء... لاشيء. تبعثر اسمي مع أشلائي. حين تعثرون على أشلائي تعثرون على اسمي. ولن تجدوها ما لم تجدوا وطني.

وأين وطنه؟

لا تقولوا أنه محتل.

هو ضائع فينا... ضائع فينا... ضائع فينا. فمن يُخرج الوطن منا كي نراه؟ منا نبدأ، فكيف نبدأ، ومتى نبدأ؟ إسألوا هذا السؤال من جديد. واذهبوا إلى اسم غسان كنفاني واسرقوه، أطلقوا اسمه على أي شيء وعلى كل شيء. أطلقوا اسمه عليكم واقتربوا من أنفسكم، من حقيقتكم، تقتربوا من الوطن.

هاهم يتبارون في رثائك، كأنك شيء ذاهب. ولم يعرفوا أنك منذ رحلت – أتيت. قادم... قادم من الريح، ومنازل الجيران وملفات التحقيق ومن الصمت واستمراء الهزيمة ومناقبها.

هاهم يتبارون في رثائك، كأنهم يرثون فرداً

آه... من يرثي بركاناً!.

هذه لحظتك. فلا تجمع أشلاءك ولا تعد... لا تعد. لا تنتظرنا في المهاجر. كان يجب أن نراك... أن نعرفك... أن نسير معك قبل اليوم. ولكن الموت لم ينضج فينا.

نعزي أهلك؟ لا.

نعزي أنفسنا؟ لا.

نذهب إلى جبل الكرمل ونعزيه.

نذهب إلى شاطئ عكا ونعزيه.

نذهب إلى فلسطين ونعزيها.

هي المفجوعة. هي الثكلى.

نعزيها أم نهنئها؟ لا أدري.

فهي التي سترتب عظامك، هي التي ستعيد تكوينك من جديد. ونحن هنا، سنموت كثيراً. كثيراً نموت، إلى أن نصبح فلسطينيين حقيقيين وعرباً حقيقيين. ولكني أستأذنك الآن في البكاء قليلاً. فهل تأذن لي بالبكاء؟ هل تغفر لي؟. أما كنت تحبني يوم كنت هناك؟!

- تلك اللحظة، لم يكن الشارع شارعاً في مدينة. وهذه محاولة وصف

كان كل شيء ونقيضه.

كان فاصلة تدل على الماء، وعلى الدم.

وكان ذبابة تأكل الحرف الفاصل بين الموت والحياة، وبين الوطن والمنفى.

كان مذبحة وحفل زفاف. ولم يكن لوركا عربياً تماماً:

«إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة.

الطفل يأكل البرتقال.

(من شرفتي أراه).

الفلاح يحصد القمح.

(من شرفتي أسمعه).

إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة».

كنا نسهر، ونحسبها قصيدة جميلة. وكان الرصاص يمشي في الشارع الآخر. يفتح باب كمال ناصر، يقتل العصافير في قلبه. ويعود من الباب ذاته، والشارع ذاته، والمدينة ذاتها. وكنا نسهر، ونعتبرها مجرد قصيدة جميلة، لأن لوركا لم يكن عربياً تماماً.

- أخيراً فعلها ومات. صدّقه الموت لأن الموت لا يمزح.

وكان كمال ناصر يبني تابوته مازحاً، ويستكتب مراثيه ضاحكاً. وفي أوج الفرح يمضي إلى الحسرة.

من أين جاءه هذا الموت قطرة قطرة حتى طفح وغطاه!. كيف سكنه كل هذه المدة ولم نصدق!.

الموت لا يليق بك يا كمال، كما لا يليق بفراشة.

كان يصر على أنه حامل بالموت. كيف نمت في هذه الحاسة ولم نشعر. وهل مات ليقنعنا بأن الحدس، فيه، لا يخطئ!.

- يقفز، كعادته، من الدمعة إلى الابتسامة. ولا يجد مكاناً يربّي فيه قلبه. خلقوا التوتر أولاً، ثم صبوا فيه جسد كمال ناصر.

كان مليئاً بالشعر، وخالياً من القصيدة.

كان طافحاً بالوطن، وخالياً من الأرض.

ولو كتب الملاحم الشعرية لانصرف عنها، لأن رياحه لا تتسع لها الحروف.

ولو وصل إلى فلسطين لمزقها، لأن الخارطة بموظفيها لا تستوعب هذا الطائر الجامح.

مندفع.. مندفع إلى أين؟

ضيّق هذا الجسد المليء بالرخام والعصافير. والأرض أضيق من مسام الجلد الغاضب.

وهو أول من لا يعرف.

حين تفاجئه بسؤال: ماذا تريد؟ يتوتر التوتر في قبضة يده. ويتحول إلى خصلة شعر في ريح. ويقول كلاماً غامضاً كأنه فلسطين التي، من شدة ما علموها اللغات، لم تعد تتقن أية لغة.

- ليست القصيدة بديلاً لأي شيء في الكون.

هذا ما يعرفه كل الشعراء. وهذا ما يجهله كل الشعراء.

سأعود إلى الشعر، يقول حين يجلس على كرسي التعب. ولكن، من يضع المساء على مكتب ويأمره بالذبول!. كان حزيناً ومراً لهذا السبب «ضيّعتُ زمان الشعر». ولم يكن يعرف أنه صار عاجزاً عن كتابة القصيدة، لأنه تحول كله إلى قصيدة، فكيف يقلّد جماله!.

- من حدد له هذا الموعد مع الموت، فراح ينظّم الجنازة، والمراثي، ويختبر حزن الأصدقاء، ويسجل صمته على شريط طويل خوفاً من الصوت؟

هو.. هو الذي حدد هذا الموعد.

حجز مكاناً في مركبة الرحيل العائد.

أعد الحقائب والشهادة الصحية والهدايا، وسافر في الدرجة الأولى.

كان الموت مطراً، طيلة ذلك العام. وصل الفلسطيني إلى كل المواسم الدامية، ولم يصل إلى الحصاد. من يجفف هذا الماء الأحمر لتعرف السنبلة أنها نضجت!.

وكمال، كعادته، يبشّر ويفجّر. حيوي كشظايا في أوج

الانفجار. ورقيق كفراشة تداعب شفة ناعمة.

كيف يتزوج الواقع والحلم على يد هذا الكاهن الثائر؟. ضيّق المسافة فتلاشت، ورأى أن فلسطين على أهبة الرحيل من القضية إلى الوصول، ومن البندقية إلى المحراث.

كان يسكن تفاصيل الواقع وجوهر الحلم، ويرى البشاعة زائلة. يقولون: ضحى بالشعر من أجل الواقع. لا. لم يضحّ بالشعر. كان يمارسه، يمشيه، وكان يُطبّقه.

كيف يطبق الشعر؟

مرِّ كمال ناصر من هنا.

ليس الشعر نقيض الواقع. هذا ما يعرفه كل الشعراء، ويجهله كل الشعراء. فلماذا يضيع كمال ناصر في هذه الثغرة الوهمية بين الشعر والواقع. فيها وجد ذاته، لأنها منطقة التوتر والتمرد والتوحد والتجدد.

- دائم الإحساس بالخسارة والإحباط، ودائم القناعة بالوصول والتجلي.

هذه العتبة بين الحاضر الطاحن والمطحون، وبين اليوم الذي يتلوه هي التي كانت تهدم كمال ناصر وتبنيه، تكسره وتحييه. وهذه هي حيوية الشاعر وصلابة الثائر.

لم أنجز شيئاً.. لم أنجز شيئاً – هكذا كان يصرخ في ليله الشخصي.

إن هذا الاحساس بخسارة اليوم هو مصدر طاقة الثوري من أجل إبداع الغد. وهو الذي يدفعه إلى المزيد من المحاولة والتجربة والاندفاع. هذه هي خلية الإبداع.

لم تكن فلسطين بعيدة عنه. كانت تتسرب فيه وتتشعب من أخمص قدميه إلى خصلات شعره.

ولم تكن فلسطين غريبة فيه، لأن الحالة الفلسطينية الجديدة بين يديه. كان ناطقاً باسم هذه الحالة الجديدة. وما تنشره التفاصيل اليومية من انقباض وارتباك، أحياناً، كان يزيد من غنى المذاق الفلسطيني المتصاعد من عملية إبداع فلسطين الجديدة.

كان يشتبك بالقناعات المختلفة أو المعادية ليبلور قناعته

الفلسطينية.

وكان يخرج من كوابيس الليل الفلسطيني بحلم مصفى.

ومن هنا، كان ناطقاً باسم الحلم الفلسطيني الجديد.

- يسبح في التفاصيل ولا يغرق.

يعرف كل مسامير الصليب، ولكنه يراه في وحدته وكليته.. حديقة فلسطينية..

كان أحد صانعي الاسم الجميل للوطن، والصورة الودودة للأشياء.

كان يرسم الشعار ويغنيه، ويفرح به كطفل.

كبر، ولم يودع طفولته، كان يحملها ويسافر، فلا يتعب ولا يصدأ.

وهل رأيتم حمامة تحمل مسدساً؟

كمال ناصر مرَّ من هنا.

وكما كان يربّي طفولته ويدللها. كان يربّي استشهاده ويداعبه.

ذهب الموت إلى البحر.. وظل البحر أزرق.

وكان كمال يمشي على حبل غسيل معلق على شرفة بعيدة. سقط الحبل، وظل كمال يمشي على تلك المسافة.

ولم يكن لوركا عربياً تماماً، ولكنه قال:

«إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة.

الطفل يأكل البرتقالة.

(من شرفتي أراه).

الفلاح يحصد القمح.

(من شرفتي أراه).

إذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة».

- ذهب الموت إلى البحر. وظل البحر أزرق.

فتشوا الموجة، لا تجدوا شيئاً.

فتشوا بيوتكم تجدوا كمال ناصر يلعب.

فتشوا قلوبكم تجدوا فيها الفرح الذي ترك.

وتزحزحوا، قليلاً، عن الوراء تجدوه أمامكم يلعب. بماذا يلعب؟ بدمه يلعب.

ذهب الموت إلى البحر، وظل البحر أزرق.

بلغ الموت سن الرشد في كمال، فحمله وطار. وكان الرخام والمطر ينهمران بلا سبب. صار الموت هو الذي يلعب. وبقي كمال ناصر فينا، كما هو.

هو.. من؟.

ما مر من هنا. إنه يمر من هنا. فتشوا عيونكم تجدوا ظله البرتقالي. وافتحوا بطن فلسطين تجدوه يتأهب للولادة.

صار جزءاً من الوقت. انظروا إلى ساعاتكم تعرفوا أن لكم موعداً معه. وانظروا إلى أبوابكم، أو إلى أي شارع، تروه يأتي بلا موعد.

لكن. هذه المرة، لا يأتي وحده.

نحن من أمامه، والقتلة من ورائه.

ولا يعود وحده. نحن من ورائه والقتلة من أمامه.

إلى أين يعودون؟

كان واضحاً أن القتلة يعودون إلى بيوتنا القديمة – الجديدة. ولم يكن واضحاً أن شهداءنا يعودون. لقد ظلوا فينا، يسكنوننا، لنعود معاً.

ولم نكن نعرف أن حرب العودة، وحرب الدفاع عن العناوين والبحر ستندلع الآن، من هذا الدم الذي جعل الشارع غير الشارع، والمدينة غير المدينة.

ولكننا كنا نعرف أن دم كمال ناصر ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان ورفاقهم لن يذهب إلى البحر. سيصيب فينا لنحترق. وكنا نعرف أن المدينة تحولت، بصمتهم، إلى وقت. الآن تبدأ حدود فلسطين. من كل بيت تبدأ. من كل صدر تبدأ. من كل صرخة، ومن كل قطرة دم. ليس شهداؤنا أكبر من الكلمات. ولكنهم أكثر من الكلمات.

ما أجملنا شهداء.

وما أقبحنا لاجئين!.

ثانياً:
صبَاح الخَير أيهَا الفرح!

- إنتظرنا أيها العالم. إنتظرنا قليلاً. فإننا قادمون إليك.

مشغولون، الآن، ببناء الأيدي التي تصل إليك.

منكبّون، الآن، على تربية الأقدام التي تحملنا إليك.

غارقون، الآن، في عملية تركيب الجسور التي يعبر عليها صوتنا إليك.

إنتظرنا أيها العالم. إنتظرنا قليلاً. فنحن الآن نتعلم المشي على الأرض. مرة أخرى، نتعلم المشي. فلا تلعب كثيراً بالكرة الأرضية التي تهتز. لا تلعب كثيراً. فعما قليل يصير بوسعنا أن نعيدها إلى التوازن – إذا شئت. وعما قليل يصير بوسعنا أن ندفعها إلى الإنفجار إذا شئت.

نحن الآن نتعلم فن المشي.

- إنتظرنا أيها العالم!..

ها هو وجهنا يخرج من قاع النيل كحمامة كانت تغرق.

وها هي يدنا تخرج من فرن الصحراء كتحية كانت تحترق.

وها هي روحنا تعود من السبي، ترتدي جسداً من قمح وشمس.. وتعود.

- متى تذكرتم، متى؟ يسألنا العالم.

- حين نسيتنا تماماً – نقول للعالم.

ونواصل المجيء.

- ألا تعتذرون؟ يسألنا العالم.

- لن تعطينا المغفرة. إن موتنا، وحده، هو الذي يأخذ شكل المغفرة. ونحن نعتذر.. نعتذر لأننا تأخرنا في الرحم، ولكن الولادة عسيرة في هذه الأيام، والجنود الغزاة يحاصرون مدخل الرحم. وأنت الشاهد المحايد أيها العالم.

- القابلة تأتي مع الجنين، من الداخل تأتي القابلة.. من الداخل. وها أنتم تعرفون.

- إنتظرنا أيها العالم! إنتظرنا قليلاً، فإن الولادة العسيرة، تملأ المدن، ونحن قادمون إليك.

تأخّرنا .. تأخرنا لأننا كنا نبحث عن طريق آخر، ولم تُخبزنا

أنّ دهاليز الدم الخصبة هي الدرب الوحيد الذي يُفضي إليك. لم تخبرنا أنّ باب الرحم هو فوّهة البُركان.

.. في طريقٍ آخر، سقطتْ أيدينا في النيل.

وفي طريق آخر، وقعت وجوهنا في ليل أغلقت عليه الباب.

وفي طريق آخر، ضاعت دمشق المكان عن دمشق الزمان.

وشاع العقم.

- أيها العالم! لا تصدق أنها حرب.
- ما هي إذن؟ يسأل العالم.
- إنها إعلان الحضور. وإنها طريق الوصول إليك. فللحرية صوت يشبه صوت الحرب، لكنها تختلف تختلف. وإذا كنت حراً أيها العالم، أو إذا كنت تحب الحرية، ستدرك أنها ليست الحرب، ولكنها ضجة الحرية.

إنتظرنا أيها العالم، إنتظرنا قليلاً، فإننا نتعلم المشي على سطح الكرة الأرضية، ونعيدها إلى التوازن.

حدّق في وجوهنا..

هذا الدم: فرح

وهذا الدخان: حمام

ومن فوهة هذه البندقية: ينهمر السلام على الأرض الحزينة.

الخروج الثاني من سيناء

اذهبْ إلى الحرب.. تصل إلى الولادة.

والآن، نولدُ، نتجدّدُ، ونبلغُ عمرَ الجدارة.

الآن نذهبُ إلى الموت الذي نختارُه لنتغلّبَ على الحياة الموروثة.

نقفُ اليومَ لإلغاء الهُدنة التي عقدناها مع ريح الصُدفة.

ننتمي إلى العالم حين نخالفُه. ننتمي إلى حياتنا حين نهدّدُها.

ننتمي إلى الوطن حين نستبدلُ صلواتِنا بالقذائف..

ننفجرُ، ونفجّرُ ... هكذا تكونُ الأعياد.

ونحن الآن في اليوم السابع، اليوم "فرغَ الربُّ من عمله الذي عمل وبارك اللّه اليومَ السابع واستراح."

بارك اللّه اليومَ السابع. ودمُنا يباركُ هذا اليومَ السابع. فالآن نرقصُ الموتَ، ونمدُّ دمَنا حبلاً إلى الوطن، واللّه يتنازلُ عن اسمه القديم اليوم، ويأخذ اسماً جديداً هو الوطن. اللّه هو الوطن..

نحن الآن في اليوم السابع، لا نرتاحُ من العمل، ولكننا نرتاحُ من الهزيمة. اليوم عطلةُ الهزيمة.

نحن اليوم نُقشّرُ خرافةَ العدوّ، ونعيدُ تكوينَها كما يشاءُ دمُنا.

في البدء، بدئنا لم يكُن القولُ ولا الفعل – في البدء كانت الهزيمة.

وفي اليوم الأوّل من هذا التاريخ الذي يكتبه دمُنا، في سِفْر تكويننا الجديد، كان عيدُ الغُفران عند أعدائنا الذين لم يُكفّروا عن خطاياهم، فقفنا بدَلاً منهم بالتكفير عن خطايانا بحقّ الوطن الذي لم يتحرّر، وبحقّ الطفل الذي لم يُولَد، وبحقّ المُستقبَل الذي لم يصِلْ. إنه يومُ غفراننا ويومُ جنونهم.

واليوم، تبدأ الخرافةُ مزةً أخرى في أسبوعٍ واحد تنازلها عن مواقعها.الخرافةُ تستسلم. ففي هذا اليوم، اليوم اليوم، يحتفلُ الأعداءُ بعيدٍ ثانٍ في أسبوع واحد هو عيدُ المظلّة: وهو يومُ خروجهم من سيناء الأولى.

اليوم خرجوا من سيناء في الأسطورة.

واليوم يبدأ خروجُهم من سيناء بقوّة الجُنديّ المصري.

التاريخ لا يعودُ إلى الوراء، ولا يُكرّرُ نفسَه.

ولكنّ الذين يربطون مُستقبلهم بالخرافة، ويُقلّدون الخرافة، وينتمون

إلى الخرافة، ويُراهنون بالخرافة – يُعيدُهم التاريخُ إلى الوراء، إلى الوراء، ويجدُ نفسَهُ مُضطرّاً لتكرار نفسِه.

حتى الخرافة تنقلبُ عليهم.

ونحن نذهبُ إلى الحرب فنصلُ إلى الولادة.

وطن آخر

أبعد من سيناء، وأبعد من الجولان، وأبعد من فلسطين – هذا الذي يحدث.

ضع نقطة، وابدأ سطراً جديداً. بوسعك الآن أن تستعمل مفكرة:

هؤلاء الجنود لا يخوضون حرباً. ولكنهم يشعلون ثورة.

وهم لا يحررون وطناً مرة واحدة. ولكنهم يحررونه مرتين.

وهم لا يكتفون بطرد الغريب عنه، ولكنهم يطردون عنه الاغتراب.

هذا الاغتراب كان حصان طروادة. لقد اغتربنا عن الوطن كثيراً، واغترب عنا الوطن كثيراً. وصلنا ذات يوم إلى نقطة خطيرة: كأنه ليس لنا. وكأننا لسنا له، وكاد يتحول إلى ميراث بلا مستقبل.

من الان.. من هذا الزلزال يجب أن نعرف أنه لنا حقاً وحقيقة. وليس لأحد فضل على آخر إلا بهذا الدم الذي يجرف جدار الاغتراب مع حصون الغزاة.

- لا تتورط في الفرح كثيراً! هكذا يقول أصحاب العواطف الموضوعية الذين قد يخشون على صحة أفكارهم أكثر من خشيتهم على وطن.

- ولكن فقراء الوطن يموتون الان من أجل تكوين هذا الفرح الذي قد لا يكون كله لهم. الفقراء يموتون ببهجة. وماذا كان الوطن يُعطيهم غير الحق في الموت أيام الحرب! الفقراء يموتون بدلاً منا ومن أجلنا.

- العبيد يصنعون قيودهم

- والعبيد يكسرون قيودهم الآن، ويصنعون المساواة غداً. لقد تدربوا على فن الحرية، وسيكون الوطن لهم، لأنهم حرروه مرتين، وبنوه مرتين.

ضع نقطة، وابدأ سطراً جديداً. بوسعك الآن أن تستعمل مفكرة:

وطن آخر خلف المتاريس.. وطن آخر، لا ينقسم الناس فيه إلى فريقين: فريق يتورط في الفرح، وفريق يتورط في الحزن..

- هذا كلام سابق لأوانه – يقول أصحاب العواطف الموضوعية الذين يفقدون الثقة بالمعركة إذا لم يصدر بلاغ عسكري كل خمس دقائق.

- من أجل هذا تعرضنا للغزو: لعرقلة سعينا إلى تطبيق العدالة، وللحيلولة دون تحولنا إلى حياة جديدة ذات نظام اجتماعي جديد..

- وماذا أيضاً؟

- افتح النافذة غداً على ميدان الأيام العادية. إذا رأيت جياعاً وعراة فاعلم أننا انتصرنا في الحرب. ولم ننتصر في الثورة. واعلم أننا لم نكرم أولئك الشهداء الذين جعلونا نفتح أبوابنا كل صباح ونقول:

صباح الخير أيها الفرح!.

أزرق.. أزرق..

«رأيت مياهاً كثيرة في حياتي، ولكنني لم أرَ ماء في مثل هذه الزرقة الداكنة.

وشاهدت رمالاً كثيرة فسيحة، ولكنني لم أشاهد رملاً ممتلئاً بالوضوح والغموض معاً مثل هذه الرمال الشرسة.

وعشت أماسي كثيرة تحاذي المجهول، ولكنني ما عشت مثل هذا المساء الذي يتناوب علاقة عجيبة مع المجهول.

ورأيت جنوداً كثيرين في حياتي، ولكنني ما رأيت، قبل الآن، كيف تقف عيون التاريخ على أصابع هؤلاء الجنود.

وعرفت الصبر والقهر والغيظ، ولكنني أقرأ الآن، لأول مرة، صدر البركان المتأهب للانفجار.

وتعرفت على أنواع كثيرة من الصمت، ولكنني لم أر صمتاً أكثر حكمة وقسوة من هذا الصمت الرابض، كالأعجوبة، على قناة السويس.

نحن نثرثر في كل مكان، ابتداءً من غرفة النوم حتى المذياع، ونكتشف في أنفسنا مواهب مفاجئة في فن الحرب والعذاب والبسالة. ولكن الحقيقة الوحيدة تبقى هناك.. على ضفاف قناة السويس. وموقفنا من هذه الحقيقة الدامية هو، وحده، الذي يمنحنا حق الكلام أو يحرمنا من حق الكلام عن الوطنية والقومية والاشتراكية وغيرها من القيم التي أوقفتها التطورات المفجعة على مفترق طرق خطير، على ضفاف قناة السويس. ذلك لا يعني أن قيمنا أصيبت بالشلل أو يجب أن تصاب بالشلل إلى حين الخروج من مفترق الطرق هناك، ولكن يعني أن العلاقة بينهما صارت أعمق وأخطر مما قد يتصور البعض، وأن التأثير المتبادل بينهما يترك آثاراً قد تتشابه في العمق والمدى: لن نتمكن من التقدم بقيمنا نحو التنفيذ الجاد ما دمنا عاجزين عن التحرك هناك. ولن نتمكن من التحرك هناك ما دمنا عاجزين عن التقدم بقيمنا.

والحرب هناك لا تكتب بالحبر والمزاج. إنها لغة الموت الحقيقية. وهي ليست قصفاً إذاعياً يعقبه نشيدُ الختام السلبي. إنها الصمت الفاعل الذي يعقبه انفجار البارود واللحم البشري. إنها مهارة الموت الذي يرد إلى التاريخ نكتته الممجوجة التي أطلقها ذات يوم عندما كان شغوفاً بالمزاح.

«أن زرقة السويس تشطرني شطرين».

هذه السطور كتبتها قبل حرب تشرين بعامين ونصف عندما زرت مدن قناة السويس، ووقفت ساعات طويلة على أنقاض مدينة بور توفيق برفقة الجنود المصريين الذين كانوا ينتظرون اندلاع العاصفة النارية بصبر أسطوري. أسجلها الآن وأقبل الأيدي التي صافحتها فأعطتني مجداً لا أستحقه!.

بطاقة إلى دمشق

ساعي البريد ينتظر،

والفراشة تحارب،

ولا تنتهي رسالتي إليك يا دمشق.

كأن الأغاني أصيبت بحنجرة لا تغني، منذ انتصبت على أصابع الشهداء.

إلى أين، إلى أين؟

ليس في المدى مكان، لأن زمانك يرتدي ملابس الميدان،

فيتدلى المدى خيطاً من ثيابك.

إلى أين؟ واسمك المتوتر لا يحتمل المزيد، فقد يصبح المجد عادة يومية، أو بواباً في الجامع الأموي..

دمشق.. يا دمشق!

تدخلين الحرب كما تدخل الفتيات ليالي الزفاف..

وتخرجين من الحرب كما يخرج الأطفال من البحيرات.

وحين تقفين، يا دمشق، تتحول الجداول إلى قامات.

وحين تمشين، يا دمشق، يتجمد الغروب على حافة الأفق.

وإلى أين يا دمشق؟

كأن الأغاني أصيبت بحنجرة لا تغني،

والشعراء يتعلمون الأبجدية من حجارتك الصغيرة.

كوني أي شيء يا دمشق، فلن تكوني إلا دمشق.

كوني سكيناً وقشرينا، يتدفق منا بردى الذي يبقى كما كان: مواطناً عادياً يدفع الضرائب، ويقصف بالقنابل، ولا يرحل عن البيت.

كوني أي شيء يا دمشق،

فلن تكوني إلا دمشق التي لا تنزل عن الأشجار، ولا تنحني.

إلى أين.. إلى أين؟

ليس في المدى مكان، لأن زمانك يرتدي ملابس الميدان، فيتدلى المدى خيطاً من ثيابك.

دمشق.. يا دمشق!

ساعي البريد ينتظر،

والفراشة تحارب،

ولا تنتهي رسالتي إليك يا دمشق..

إنهم يحملون الوفاة منذ جاءوا إلى هذه الولادة.

لقد توحدوا بالخرافة، وأقنعوا أنفسهم بأنهم يعيدون التاريخ إلى سن الطيش.

مسادة.. مسادة.. تسري في شراييهم وتسكرهم وهماً وغطرسة «مسادة لن تسقط مرة أخرى. مسادة لن تسقط» ولم يتعلموا من الإبادة إلا التدرّب على إبادة الآخرين. لأنها الوسيلة الوحيدة لتشكيل ذاتهم الجديدة.

وفي عيد الغفران، لم يحاولوا التكفير عن ذنوبهم كما أوصاهم الرب، الذي لم يأخذوا من وصاياه الكثيرة إلا ما قاله على أسوار أريحا. في عيد الغفران كانوا، بدلاً من ذلك، يحتفلون بسقوط أعدائهم.

ولكننا نحن.. نحن الذين اندفعنا، في يوم غفرانهم، للتكفير عن ذنوبنا التي ارتكبناها في ثلاث حروب رخيصة، فصار يومَ غفراننا العظيم عن آثام ارتكبناها بحق تراب كدنا نشك بأننا جديرون به، وبحق أطفال كدنا نشك بأننا آباؤهم.

كان الحزن يتصبب من مسام جلودنا.

وكان الفرح يتصبب من أحذية جنودهم.

وفي يوم الغفران كفّرنا عن هذه الخطيئة.

لم يتعلموا شيئاً. وكانوا يتقنون لغات كثيرة أنساهم النصر الرخيص إياها، وما عادوا يفهمون إلا هذه اللغة التي نخاطبهم بها اليوم. نشكرهم أم نرثيهم؟ فمهما تكن النتائج.. مهما تكن، لن تكون إلا أننا أتقنا الآن لغة الجدارة بالحياة والوطن والعالم، وحرمناهم منها.

لقد انتصرنا، انتصرنا في اللحظة الأولى التي أطلقنا فيها النار عليهم وعلينا في آن واحد. لقد قتلنا أوهامنا القديمة ولغاتنا البائدة. لقد انتصرنا على الغزو الداخلي المتغلغل فينا قبل تغلغل الأعداء في أراضينا. لقد حررنا ذواتنا من الاحتلال المعنوي والنفسي، وحررنا شرفنا من التسكع على أرصفة الحياة، وحررنا جلودنا من الغزاة الذين يرقصون تحت جلودنا.

هذا هو النصر الأول والأكبر – تحرير الذات والإرادة، ثم يكون تحرير الأرض سهلاً كهذا الموت الشائع في هذه الساعات التي نعيد فيها التاريخ الشرقي إلى سن الرشد.

«مسادة لن تسقط. لن تسقط ثانية». لم يتعلموا شيئاً مرة أخرى. لم يتعلموا شيئاً يحميهم من خطيئتهم ومن غضبنا. لم يتعلموا إلا التشبث

بأسباب اغترابهم عنا وعن العالم. ومسادة ليست، بالنسبة لهم، قصة تاريخية تتحدث عن حصن قديم دافع عنه مقاتلوهم القدامى حتى الموت. لقد حولوها، منذ جاءوا إلى فلسطين، إلى حالة نفسية وإلى عقدة. عقدة يحملونها وينتحرون.

يحاربون وينتحرون.

ينتصرون وينتحرون.

يتوسعون وينتحرون.

إن مسادة التي آمنوا بأنها قوتهم لم تكن، في واقع الأمر، إلا مصرعهم. فإن اختيار حالة الحصار حلاً لحالة الاغتراب عن المنطقة لا يكون في آخر الأمر إلا ضرباً من ضروب الانتحار. وعلى هذا الأساس، فإن كل انتصار إسرائيلي هو انتحار إسرائيلي في الوقت ذاته، وعقدة مسادة هي الانتحار التاريخي البطيء، حتى لو أوهمتهم حروب رخيصة، لم يقاتل فيها العرب بأن التاريخ قابل للتعديل الخاطئ.

لقد دكت الخرافة. الخرافة دكت من أركانها في أعماق النفسية الإسرائيلية. والتجربة التاريخية على الطريقة الإسرائيلية أثبتت فداحة أخطائها. وإذا كان هذا ما حدث للنفس والخرافة، فما قيمة الحجارة القديمة التي حولوها إلى حالة نفسية وإلى عقدة؟ لم تسقط مسادة؟ صحيح. ولكن الرمز والمعنى والأسطورة تهاوى. انكسر اليقين المطلق. وقع الشرخ بين الواقع والخرافة. تغلغل الشك بالقيم التي كانت مناقشتها محرمة. اقتنع الجسد الإسرائيلي بأنه قابل للجرح. التقى الموت بالضريبة فصارت مسادة قابلة للكسر. ومهما تكن النتائج، مهما تكن.. فقد وقع الخلاف بين الإسرائيلي وبين قناعاته. واهتزت مسادة من أركانها.

ماذا يعني ذلك؟

يعني، بالنسبة إليهم، أن التباهي بحالة الحصار هو مباهاة بالجنون. ويعني أن أسئلة كثيرة.. كثيرة جداً ستضمن شرعية الطرح: هل كانت التجربة صواباً أم خطأ؟ وهل كان المؤرخون يكذبون حين قالوا أن فلسطين ليست وطن كل اليهود، وأن إقامة إسرائيل ليست حلاً للمشكلة اليهودية. سيكون بوسعنا أن نتساءل بعد مدة: أليس إصرار الصهيونية على إنشاء دولة يهودية في فلسطين رداً على الكارثة التي حلت بهم – كما يقولون – هو مواجهة كارثة بكارثة أفدح؟

هذا هو السؤال الذي كان ينبغي عليهم أن يطرحوه في يوم غفرانهم الذي صار يوم غفراننا. كان ينبغي عليهم أن يتركوا خلفهم جسراً للعودة،

أن يتعلموا شيئاً من تاريخهم ومن تاريخ غيرهم. فوقعوا ضحية أنفسهم، ضحية غرورهم واستهتارهم بهذه الشعوب العربية التي أذلوها حتى القتل. لم يعرفوا أنهم – في آخر الأمر – غرباء عن المنطقة. غرباء بلا جذور. لم يحاولوا أن يقيموا جذراً حقيقياً واحداً لهم. استبدلوا الجذور بالنابالم. والنابالم لا يستطيع كسب حق في نبتة صغيرة. ليسوا أكثر من سفينة في بحر. كيف تستطيع سفينة طائشة أن تستفز البحر إلى هذا الحد؟ لقد خدعهم هدوء البحر العربي الذي تحرك الآن لمعاقبة السفينة الطائشة.

مهما تكن النتائج – مهما تكن، فإن شيئاً واحداً تاريخياً قد حدث. هو أن البحر الهادئ قد نطق حركة وفعلاً وغضباً، وأن السفينة الطائشة قد أدركت أنها تطفو على سطح ماء متحرك، وأنها هي التي اختارت أن تقطع الصلة باليابسة.

يقول البعض – من فرط الدهشة – أنها مسرحية، وأنها حرب تسوية لا حرب تحرير، وأنها مقدمة للمفاوضات مع العدو. ومهما تكن الأقوال ومهما تكن النوايا – مهما تكن، فإن بطولات الجنود العرب واستردادهم ثقتهم بالنفس، وبرهنتهم على عمق الوطنية تمزق النص – الافتراء هواء هواء على مرتفعات الجولان وعلى رمال سيناء.

إن مرحلة بأكملها تسقط الآن، على الجانب العربي وعلى الجانب الإسرائيلي. صارت نوافذنا أوسع وتطل على عالم جديد. فمنذ أطلت فوهة المدفع العربي على العدو، كانت في الوقت ذاته تفتح ثغرة واسعة.. واسعة جداً في الأفق العربي المسدود، وكانت إطلالة على عالم جديد.. عالم لنا.

نحن نقاتل.. وهم يقامرون

أن تطول الحرب... أن تطول – معناه أننا قادرون على هزيمة العدو، بعدما هزمنا الهزيمة في نفوسنا منذ اللحظة التي احتكمنا فيها إلى النار.

.. النار هي القرار الوحيد الوحيد الذي يؤدي تنفيذه إلى استرجاع شرفنا الإنساني من مهانة ربع القرن.

.. النار هي المحكمة الوحيدة الوحيدة الجديرة بأن تشرع العدالة بيننا وبين مثل هذا الطراز من الأعداء.

والنار، هي التجربة الضرورية لاختبار معدن هذا الإنسان العربي، الذي لم يمارس اختباره منذ مدة طويلة فكاد يتوحد في الشك.

وأن تطول الحرب... أن تطول – معناه أن تكتمل عملية التحقق من أصالة هذا المعدن، وأن تنضج عملية صهر الإنسان العربي في قيم مختلفة وقناعات جديدة.

نحن لا نخوض معركة من أجل انتصار سريع ورخيص، فمثل هذا الانتصار – إذا كان ممكناً – سيكون ملامساً لممارسة الجماهير وليس معجوناً ببخار دمها وتحرر إرادتها.

وأن تطول الحرب... أن تطول. معناه أن تتلاحم عمليتان تاريخيتان: انعتاق إرادة الجماهير العربية في خوض تجربتها الذاتية من ناحية، واستنزاف العدو وتقليم اظافره من ناحية اخرى.

وأن تطول الحرب... أن تطول – معناه أننا نكسب حليفاً قوياً استطاع العدو – فيما مضى – أن يجنده في قواته المقاتلة. هذا الحليف الخطير هو الزمن، الذي يدفعه طول الحرب وصمودنا من منطقة الحياد إلى الانخراط في صفوف جنودنا وشعوبنا. وفي هذه العملية، وهي بمثابة نقطة تحول هائلة – يأخذ انحياز الزمن إلى جانبنا كل الطاقات العربية المتفرجة والسلبية، يأخذها من مقاعد المتفرجين إلى منطقة البركان المشتعل، فيثبت طول الحرب.. يثبت من جديد وحدة هذه الأمة المترامية من طنجة إلى عدن، ويثبت اصالة التحام لغتها وتراثها وترابها وأحلامها.

وأن تطول الحرب... أن تطول في المكان والزمان – معناه أن نعتاد مرافقة مجرى التاريخ، وأن نعرف أن لا شعب... لا شعب عبر التاريخ قادر على الانتصار بلا تضحية وبلا ثمن، وأن المعارك لا يديرها أفراد جيوشنا الشجعان وحدهم. فلنستعدّ لاستقبال الحرب في بيوتنا، وفي أسرّة

أطفالنا، وفي مصانعنا. فهذه هي الحرب.

وأن تطول – معناه أن يأخذ الفارق التاريخي الواسع.. الواسع جداً بين طاقاتنا وبين طاقات العدو مداه الكامل. نحن قادرون على امتصاص الخسائر وتعويضها. نحن قادرون على التكاثر. وهم عاجزون عن ذلك إذا طالت الحرب. لقد بدأوا الآن يدركون أن انتصاراتهم كانت طارئة في المقياس التاريخي، وأن قناعاتهم العنيدة ضرب من ضروب الجنون والاقتراب من الانتحار.

وأن تطول الحرب، أخيراً – معناه أننا سندرك أننا نقاتل.. نقاتل. وسيدرك الأعداء أنهم يقامرون بكل شيء حتى بالمستقبل.

وهذا هو الفارق بيننا: نحن نقاتل، وهم يقامرون.

أصحاب الأناقة الوطنية يسألون:

أين الفلسطيني في الحرب؟

ولا يجدون من يرد على أناقة السؤال، لأن المقاوم الفلسطيني ملتحم بحوار الموت مع العدو، بعيداً عن أبصارنا ومسامعنا وآلات تصويرنا..

إنه هناك ينفجر ويفجر في أعماق العدو. ويستأنف الثورة التي لم تتوقف يوماً، ومنعت غيرها من التوقف الطويل.

في المعركة، لا يجوز الحديث إلا عن المعركة. ولهذا ينبغي الحديث عن المقاوم الفلسطيني لأنه المعركة الدائمة أمس واليوم وغداً. لأنه حاضر في كل ومضة نار، في كل رصاصة، وفي كل خطوة نحو الصراع. ولأنه غائب دائماً عن أية سكينة، وعن أية هدنة، وعن أية مهادنة مع مصارعة العدو. لم يكف المقاوم الفلسطيني عن مناشدة الآخرين لخوض المعركة، ولم يكن خلافه مع أحد من العرب إلا بسبب اندفاعه ومحاولة دفعه الاخرين إلى فتح المعركة المنشودة.

بهذه الحرب المشتعلة الآن، يحقق الفلسطيني ذاته المتجددة. ينمي حياته التي تعرضت للاغتيال. يجسد حلمه المتوتر. يوسع دائرة الصراع مع العدو الذي لم يبدأه الآن. ومن هنا يكون حضور الفلسطيني الآن، أشد تألقاً وتوهجاً وكثافة.

في أيام الهدوء النسبي، كان الفلسطيني المقاوم هو الذي يشكل خللاً في معادلة الأمن الإسرائيلي. كان المحرض، والمقلق، والنموذج الذي حول الهزيمة إلى حافز للرفض والتصدي والتحدي بدلاً من أن تصير حالة. كان رمزاً يحمي روح الأمة من الخمول وكان واقعاً يجعلها تضغط وتعد بالتضحية من أجل هذه المعركة.

كان صغيراً ومحاصراً؟ صحيح. ولكنه كان معنى كبيراً يفتح الآفاق. وكان توتراً فاعلاً في جسد السكينة.

إن المقاوم الفلسطيني يجدد حياته في اندلاع هذه المعركة. يحظى بشروط عمل ثوري أفضل. يصير حالة شعبية عامة. يصير حليفاً لجيوش وطنية قادرة على خلق إمكانية النصر. فلا يصير قابلاً للحصار في أسوأ الحالات، وقابلاً للرثاء العاطفي في أحسن الحالات. من هنا يرحب.. يرحب بالمعركة ويخوضها بإيمان أشد. إن شرايين العرب تصب في قلبه. وهو يصب في قلوب العرب. ولا يجد نفسه الآن «مخرباً» و«مورطاً» ومتطاولاً

على «ظروف غير ملائمة». فالواحد يلتحم في الكل.

وجهه لا يملأ الصورة؟ صحيح، لأن ذلك دليل على وحدة الوجه العربي للقضية. الفلسطيني المقاوم عربي. والعربي المقاتل فلسطيني. وجوهر المعركة مع العدو – بمعناها الشامل – هو الصورة الوحيدة: أبعد من قطعة أرض. أعمق من جواز سفر. ماذا؟ هل نسينا؟.

إن الفلسطيني المقاوم، إذ يبدو أنه ضاع في الصورة، فذلك تعبير عن تعريب فلسطين وفلسطنة العروبة. والفلسطيني يسكن قبضة النار أيام الحرب وأيام اللاحرب من أجل فلسطين ومن أجل العرب. إنه منطلق كالريح الخصبة في كل بقعة أرض محتلة. منطلق كالريح في القضية.. في النفسية.. في الأيام الراكدة.. وفي الأيام العاصفة.

... إنه الشرارة التي لم تنطفئ. ويسعد الشرارة... يسعدها كثيراً أن تكبر النار المولودة وتطغى على كل شيء. ليس باستطاعة عدسة آلات التصوير التقاط صورة للريح والشرارة. ولماذا ننسى؟ لقد مزق الفلسطيني صورته منذ قرر أن يمزق جسده من أجل أن تخصب الأرض والقضية.

وهذه الحرب عرس فلسطيني، لأنها خطوة كبيرة نحو فلسطين، لأنها تجعل فلسطين أقرب. فلماذا يطرح أصحاب الأناقة الفكرية أسئلة توحي بأن فلسطين صارت أبعد؟ لقد كان الفلسطيني المقاوم قبل هذه الحرب، ويبقى بعدها. والحرب العربية ضد العدو وضد ما يمثله هي حرب فلسطينية. والثورة الفلسطينية على العدو وعلى ما يمثله هي ثورة عربية.

ماذا أصابنا؟ الم نتفق على ألا نتحدث في المعركة إلا عن المعركة. دعوا، إذن، المقاوم الفلسطيني يستأنف حوار النار مع العدو متحداً بالمقاتلين العرب. دعوه يجدد شباب الأمل والهدف. دعوه يكمل عناق الأرض الفلسطينية والعربية، فإنه يقاتل من أجلنا جميعاً.. أمس واليوم وغداً.

« ليتني سمعت نصيحة زوجتي، وسافرنا إلى السويد ».

هكذا قال طيار إسرائيلي أسير في دمشق.

« أين مفاتيح البيوت؟ وأين الحقائب؟ ».

هكذا تسأل، الآن، عائلات عربية كثيرة كان الموت الإسرائيلي قد أجلاها عن منازلها في سيناء وضفاف قناة السويس ومرتفعات الجولان.

إن « حرب حقائب ومفاتيح » تجري الآن، بصمت، على طرفي الصراع. تظهر نتائجها بجلاء على الجانب العربي، وتتكون مقدماتها بحياء على الجانب الإسرائيلي.

المهاجرون العرب يعودون، ويجلسون الآن على الحقائب. والمهاجرون اليهود يفكرون، الآن أيضاً، ويعيدون النظر بمصير مهتز وبوعد قابل للخيانة.

كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي الشرط الأول لقدرة الفكرة الصهيونية على التجسد في كيان مادي. ثم صارت في الأعوام الأخيرة هي الشرط الأول لقدرة الكيان الإسرائيلي على تكريس الاحتلال والتوسع وهضم الأرض.

ومن الصعب التسليم بالرأي القائل إن الحق الإنساني في هجرة الإنسان من مكان إلى مكان ينطبق على الهجرة اليهودية إلى فلسطين.ليس هذا القانون مطلقاً، لأن هذه الهجرة الصهيونية جاءت وتجيء لاجتثاث حق الإنسان الفلسطيني من مكان على سطح هذه الكرة الأرضية، ولدفعه إلى الهجرة الدائمة – من جهة. ومن جهة أخرى، فإن هذه الهجرة – في ظروف الصراع – تعتبر هجرة أمنية لتثبيت الظلم والاغتصاب. والمهاجر اليهودي الذي اختار القدوم إلى أرض فلسطين قد اختار، بمحض إرادته الحرة، أن يكون جنديا في جيش الغزاة.

والآن، تنكسر الأرض المعدة لاستيعابه. يتبخر الأمان الموعود. تسقط حماقة المقارنة الصهيونية بين النظام الاجتماعي الاشتراكي وبين النظام الرأسمالي. هنا، تطرح جملة اعتراضية هذا السؤال القاسي: كيف يضحي بعض اليهود بالحياة في ظل الاشتراكية الآمنة، من أجل الحياة في ظل الاستغلال الرأسمالي والحرب؟ كيف.. كيف يحدث هذا؟

«إما أن نتكتل نتيجة الخوف. وإما أن نتفتت من الضعف».

هكذا يقول الإسرائيليون. وها هو التكتل الذي لا مضمون له إلا

الحرب – الخوف من العرب قد تنازل الآن لمظاهر الضعف التي تظهر في القلعة الإسرائيلية. هل هي بداية التفتت؟. من السابق لأوانه أن نجيب على هذا السؤال بيقين سهل. ولكن بوسعنا أن نلاحظ بوضوح أن سقوط التوسع سيؤدي إلى سقوط الهجرة.

وأن الحرب التي كانت مرادفة للحق وتكريس الحق – في نظر الإسرائيلي – لم تعد مضمونة النصر، فوجد «الحق» الصهيوني نفسه في العراء. وصارت الهجرة إلى «أرض الميعاد» سفراً إلى الجحيم.

لقد بدأت حرب الحقائب والمفاتيح.

فهل تتيقظ الآن حاسة السخرية لدى الإسرائيلي؟ هل يقول الآن ما كان يقوله عشية الخامس من حزيران (نتيجة الأزمة الاقتصادية والتوتر الأمني) هل يقول أنه يجب أن تنصب لافتة في مطار اللد.. تحمل الرجاء التالي:

« يُرجَى من المسافر الأخير ألا ينسى إطفاء النور في المطار ».

هل يقول؟.

في دخان المعارك العظيمة، تصير الرؤية أوضح,

وها نحن نرى: ليس العالم معنا، وليس العالم ضدنا. لأن العالم ليس واحداً. فماذا نعني، ماذا نعني بهذا المصطلح الغامض «الرأي العام العالمي»؟

إن شعوب الاتحاد السوفياتي قد أعطتنا الدليل على أن قضية الحرية والنهوض الإنساني واحدة. كان بوسع هذه الشعوب الأصيلة أن تعمل ساعات أقل، وأن تتمتع بحياة أكثر ترفاً، ولكنها تقاسمنا نتاج عرقها من أجل أن تصير الحرية أكبر.

هذا العالم لنا.

وإن الولايات المتحدة الأمريكية تعطي الدليل على أن قضية العدوان واحدة، وأن قربى الدم بين الغزاة لا تنفصم. كان بوسع الولايات المتحدة أن تجعل الشعوب أقل عذاباً، ولكنها تفعل كل شيء، حتى التضحية بالأمريكيين، من أجل أن تصير الحرية أصغر.

هذا العالم ضدنا.

وفي دخان المعارك العظيمة، تصير الرؤية أوضح.

ها هي قارة باكملها تقريباً تنفض يدها الضخمة من صداقة قديمة قامت على سوء فهم. إن افريقيا التي لم تكشف عن كل خصوبتها وطهارتها حتى الآن تجعل عالمنا أوسع.

وهذا عالم لنا أيضاً.

وهؤلاء الكتاب والمثقفون والفنانون في الغرب ليسوا لوناً واحداً. ليسوا كلهم معنا، وليس كلهم ضدنا. لقد أعلن شرفاؤهم هويتهم الإنسانية ولم يكونوا محايدين تجاه معركة الحرية الساطعة التي نخوضها. وأعلن أخرون انتماءهم إلى «شرعية» الغزو الإسرائيلي، وكشفوا مخزون العنصرية التي يكنونها ضد الشرق. بعضهم مرتزق. وبعضهم بلا ضمير. وبعضهم يعاني من فقر قضية فتزوج الصهيونية التي كانت موديلاً أدبيا شائعاً بين بعض كتاب الغرب.

والبعض الآخر يحب الشفقة. يريدنا أن نكون مادة حزن ملهمة. إنه من هواة جمع بكائيات الشعوب الشرقية. وحين تلجأ هذه الشعوب إلى استخدام العنف لترد على «حضارة العنف» تصبح خارجة عن معادلة

هؤلاء لن يفهمونا، لأنهن لا يريدون أن يفهمونا.

وها هو العالم يعلن هويته: أصدقاء الحرية أصدقاؤنا. وأصدقاء العنصرية أصدقاء أعدائنا. ولعل الصراع العربي – الصهيوني كان محكاً لاختبار المعادن في الغرب. حين يتطوع الكاتب لخدمة الجريمة الصهيونية يكون قد أعطى ضميره لذئب مدلل، وخان.. خان أشرف ما يعنيه الإنسان. وخان الكتابة أيضاً..

فلماذا نقلق منهم، ولماذا نلعنهم طالما أنهم خرجوا من عالم الإنسانية، لأنه عالمنا.

هزيمة العدو
في ذروة انتصاره

يمكن الظن.. ويمكن القول أن بذور هزيمة العدو قد نمت في ذروة انتصاره. في معارك الخامس من حزيران. وهنالك رأي عسكري يقول ان ثمة نوعاً من الانتصارات ينتهي بالمنتصر إلى القبر.

كان انتصار إسرائيل عيئاً ثقيلاً لا تقوى أكتافها المحدودة على حمله. ولا يستطيع التطور الطبيعي لشعوب المنطقة ابتلاعه. وكان بعض المفكرين والمؤرخين يتهم باللاسامية حيناً وبالشاعرية حيناً، عندما كان يحذر الإسرائيليين – الذين لم ينتصروا ولكنهم وجدوا أنفسهم يحظون بنصر بلا جدارة – من مفعول النشوة التي تعطل عمل العقل، وتدفع المصابين بها إلى الثقة المطلقة بقدرة ذاتية طارئة بوسعها أن تبطل مفعول قوانين التطور.

وهذا ما أصابهم:

لقد تغلغل في الوعي الإسرائيلي ايمان غير قابل للمناقشة بأن الأقدار تدلّلهم. وتجسدت هذه الأقدار، في نهاية المطاف، في أنّ طائرة «الفانتوم» مثلاً – حين تحمل نجمة داود – تشكل ضمانا ابديا لأمنهم المستحيل. لقد صار الارتكاز على اجنحة هذه الأسطورة العصرية من جهة، وعلى حائط المبكى الذي يمثل حيوية الأسطورة القديمة من جهة أخرى، صار بديلاً للاحتكام إلى وسائل أخرى أكثر منطقية للبحث عن مستقبل أقل تطاولاً على تاريخ المنطقة وأقل استفزازاً لشعوبها.

استبدلوا الواقع بالخرافة..

واستبدلوا التاريخ بالسحر..

ولم يعد يهمهم، ابداً، تحقيق ما وعدوا به أنفسهم من تشكيل ذات قومية جديدة ذات تقاليد مختلفة، تشكل تفرداً في هذا الشرق المتخلف!! بدلاً من ذلك، كرّسوا كل جهودهم «ذات الطابع الغربي» لبناء حضارة العنف والارهاب، ولإعطاء التاريخ برهاناً عصرياً على بطلان مفعوله. فكثيراً ما قالوا، علانية، إن هزيمة الصليبيين في المنطقة لا ترجع إلى حتمية تاريخية تفاعلت معها إرادة شعوب المنطقة، فإن الاسرائليين إذ يتعلمون من دروس هذه التجربة، مطمئنون إلى إن هزيمة زملائهم السابقين يمكن تلافيها بالتمسك بالأسباب التي عمقت اغتراب الصليبيين عن المنطقة وسببت هزيمتهم.

إن الداء نفسه يمكن أن يصير دواء في صيدلية الفلسفة الصهيونية!.

لقد ارتاح الإسرائيليون، الذين قد يعتزون باعادة روح إسبارطة إلى الحياة، إلى الثقة المطلقة بنصرهم في الخامس من حزيران، دون ان تعنيهم معرفة أن هذا النصر السريع لم يحل مشكلة واحدة من مشاكلهم الاكثر حيوية وهو قبول شعوب المنطقة لهم، ولكنها رسخت هذه المشاكل وكرستها، ودفعت العرب إلى التفكير بتوظيف المزيد من طاقاتهم في قضية العداء لإسرائيل. وأن حصول إسرائيل على المزيد من الاراضي التي تحتاج إلى المزيد من جهد حراستها والمحافظة عليها قد ألغى «الطموح اليهودي البريء» إلى التنمية وخلق طراز حياة أوروبي في آسيا، لأن المزيد من النصر يعني المزيد من استنزاف الطاقة الاقتصادية للمحافظة على هذا النصر.

ولقد اطمأن الإسرائيليون، الذين سحرهم العثور على قبور شخصيات التوراة، إلى اليقين المطلق بأن نتائج هزيمة العرب ستكون أبدية، وأن مقدرة العرب على مجرد التفكير بمحاربة من استولوا على أوطانهم ستكون نوعاً من الانتحار الذي لا يقوى عليه العرب. وحين سئل رئيس أركان الجيش الإسرائيلي قبل الحرب: هل يستطيع أربعة ملايين يهودي المحافظة، إلى الأبد، على توازن القوى ضد مائة مليون عربي، وفي ظروف متغيرة؟ أجاب بغرور: ممكن لعدد كبير جداً من السنوات. وبعد شهرين فقط وجد القائد الإسرائيلي نفسه في مواجهة لا يعرف نهايتها.

وصدق ديان أن طلعته الشهيرة، في المجلات والصحف الغربية، مجرد طلعته المحصنة ضد سوء الطالع، كفيلة بتفتيت طاقات العرب ومواردهم ومكانتهم التاريخية وقدراتهم البشرية. ودعا، قبل الحرب أيضاً، فوجاً جديداً من ضباطه إلى تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى حدود دائمة لإسرائيل. وأكد أن الإسرائيليين يستطيعون، بقوتهم الذاتية، الاستمرار على هذا الوضع لسنوات طويلة طويلة. وبعد شهرين فقط يجد ديان أن «معجزة» الردع الإسرائيلي معرضة للهتك.

لقد فقدوا حاسة الخوف التي كانت تشكل جوهر وجودهم. واستبدلوها بحاسة الحظ الذي لا يخالفهم. فوجدوا أنفسهم، هذه الأيام، يسددون حساب الصلافة والاستهتار بالآخرين والتطاول على التاريخ.

وعاد السؤال المحرم إلى الوجود: هل تستطيع دولة أن تنام على الحراب؟ هل تستطيع مثل هذه الدولة التي تجمع طوائف وجماعات لا توحدها إلا الحرب مع العرب.. هل تستطيع البقاء؟. كانت الحرب – وما

زالت – هي المضمون الوحيد الوحيد لسعي المجتمع الإسرائيلي إلى التبلور. وكان الانتصار الابدي المضمون في هذه الحرب يشكل محور التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين. فماذا يحدث.. ماذا يحدث حين يقع خلل في هذه المعادلة – القاعدة. هل تفقد إسرائيل ضرورة بقائها وهل يفقد التجمع الإسرائيلي مبرر وجوده؟

لم يكن الغرور الإسرائيلي يتحاشى هذا السؤال وحسب. ولكن كان باحتكامه إلى العنف المسلح وإلى الخرافة الدينية المسلحة يقمع محاولة التفكير لدى الإسرائيلي. ولعل التوقف عن التفكير بالمستقبل وإعادة النظر في محالفة القدر وانحلال الحس التاريخي فيهم بعد انتصارهم في حرب حزيران هو ما نعنيه حين نقول إن بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم، الذي أدى بهم إلى احتقار الفكر والمفكرين والاستهتار بالتاريخ والمؤرخين. سخروا كثيراً من مؤرخهم البروفيسور تلمون الذي خاف انتصار 1967 «لأن القوة لا تخلق الحق». وسخروا من توينبي الذي قال ببطلان قيام إسرائيل – في المنظور التاريخي – لأنها قامت على الظلم، ولأنها عاجزة عن تقديم حل للمسألة اليهودية، وإنما تلحق الظلم باليهود أنفسهم ليس داخل إسرائيل فحسب، بل خارجها أيضاً إذ تجعلهم مزدوجي الانتماء. وسخروا من اسحق دويتشر الذي قال إن نصر إسرائيل العسكري سيتكشف في مستقبل قريب عن أنه كان في الواقع كارثة، وبالدرجة الأولى لدولة إسرائيل نفسها. لقد شاهد دويتشر – وهو من أصل يهودي ـ : «المشاهد التي تعرضها شاشة التلفزيون.. شاهد الفاتحين وهم يعرضون صور غطرستهم وتعجرفهم ووحشيتهم ومظاهر شوفينيتهم والاحتفالات الجنونية التي أحيوها إعلاناً عن نصر بلا مجد، كان ذلك كله يتناقض تناقضاً وحشياً مع الصور التي كانت تظهر آلام العرب وأحزانهم وصفوف اللاجئين وصور الجنود المصريين الذين ماتوا عطشاً في الصحراء. وتألمت كذلك أن أرى الحاخاميين بقاماتهم العائدة للقرون الوسطى يرقصون فرحاً أمام حائط المبكى. وكان يخيل إليّ أني أرى البلاد وقد اكتسحتها نزعة الظلامية التلمودية. ها هم اليهود اليوم يمثلون في الشرق الاوسط دور عملاء المصالح الإمبريالية، إنهم بذلك يخلقون حقد جيرانهم وكراهيتهم، هؤلاء الجيران الذي هم ضحايا الإمبريالية. وهذا بلا شك أسوأ مصير يواجهونه. أما العرب، فسيعرفون كيف يستخرجون الدرس من هزيمتهم»...

ها هم العرب يعرفون...

وها هم الإسرائيليون يحققون شيئاً واحداً: لقد حولوا الخوف

المصطنع من العرب إلى خوف حقيقي. وهم حين يسعون إلى نصر جديد، فإنهم يسعون في آخر الأمر – إلى هزيمة جديدة، لأن بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم.

ثالثاً:

مَاذا فعَلت بالخريف.. يا سرحَان!

ثلاث بطاقات من حيفا

- ١ -

مقهى صغير على الشاطئ:

أخيراً، أقول لأمي: وجدت الفرح.

أعيد لها مناديلها لأنني لن أضيع.. لن أضيع كثيراً في هذه الأيام. فالأمهات كثيرات.

تعال يا خريف! فقد كنت أقول دائماً لأصدقائي إني أحبك. وكنت لا أعترف أمام حبيبتي ولا أطيعها إلا في الخريف. كانت كآبتي تصغر فيك وتذبل، لأن أوراق الشجر تخفيها عني وعن عيون الحراس الذين كانوا يأتون من الأمواج.

والموج، الآن، أمامي عصافير. والغروب البرتقالي يقف على حافة الزبد ويشرب. وأنا في المقهى أنتقي ذكرياتي كما أشاء. إنها تجلس أمامي مثل عنقود العنب. أختارها حبة حبة، وألقي بالفاسد منها عبر النافذة المفتوحة.

كيف تتسع النافذة الصغيرة لكل هذا الأفق الواسع، ولعيون الشهداء الكثيرة؟ أدخل أيها البحر.. أدخل صدري المثقوب بسهم الفرح القادم من أحذية الجنود المفاجئين. أدخل أيها البحر.. أدخل خيمة البدوي الذي يقف الآن على مئذنة النخيل، ويدعو العالم إلى غسل خطاياه في جراح العرب.

تعالوا أيها الشهداء، طوبى للتراب الذي تطأونه لأنه يصير بحيرة. ويصير البحر بساطاً حين تجيئون. تعالوا واستحموا في مياه فلسطين التي تتبعكم بجراحها وتقول: أغطيكم. أدخلوا أيها الشهداء نوافذ هذا الوطن حتى تطل على الجنة. مرروا أصابعكم على أشجاره لتصير الخضرة في لون النار الاسطورية.

وأخيراً، أقول لأمي: وجدت الفرح.

وأتابع زيارتي لهذا المقهى الجالس على شاطئ يفصل الخريف عن سائر الفصول.

وبوسعي الآن.. بوسعي الآن أن أكتب على ورق الشجر المتناثر، لأن الريح لن تضيع رسائلي!.

- ٢ -

الزنزانة

يحدث هذا.. يحدث هذا أحياناً.. يحدث هذا الآن: أن تركب حصاناً في زنزانة وتسافر.

يحدث أن: تسقط جدران الزنزانة، وتصير آفاقاً لا حدود لها:

- ماذا فعلت بالحائط؟

- أعدتُه إلى الصخور.
- وماذا فعلت بالسقف؟
- حولته إلى سرج.
- وماذا فعلت بالقيد؟
- حولته إلى قلم.

غضب السجان. وضع حداً للمناقشة. قال إنه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة.

عاد إليّ في الصباح.. وصاح:

- من أين هذا الماء؟
- من النيل؟
- من أين هذا الشجر؟
- من بساتين دمشق.
- ومن أين هذه الموسيقى؟
- من قلبي.

غضب الحارس. وضع حداً للمناقشة. قال إنه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة.

وعاد في المساء:

- من أين هذا القمر؟
- من ليالي بغداد.
- ومن أين هذا الكأس؟
- من كروم الجزائر.
- ومن أين هذه الحرية؟
- من القيد الذي وضعته أمس.

صار السجان حزيناً. ورجاني أن أمنحه حريته.

والشارع لي:

وغابات الصنوبر أيضاً، وحبيبتي لن تحزن.

ليست الحرب نزهة ولا احتفالا. ولكننا كنا نُقتل بلا حرب ومن قلة الحرب.

لم تبتهج أم بولادة طفل، كما تحتفل الأرض الآن بميلاد الأمة. عشرات السنين المكبوتة تستيقظ الآن من الحرمان..

وهذا موسم الزيتون، ولا نجمع إلا شظايا القذائف وعيون الشهداء

هذا مهر الأرض التي تزف إلى الرجال.

للصخرة شكل الكمثرى ومذاق الثدي.

والآن نحصي عدد الطائرات. وغداً نيأس من إحصاء عدد البطولات، وأمواج العصافير.

والآن نحصي عدد الخطوات الباقية. إن فلسطين تتشبث بأقدام المقاتلين. تعالوا.. تعالوا لأن انتظاري طويل، وما عاد في جسمي موضع لتلقي مزيد من سياط الشرطة.

الفتاة تنام معي في الليل، وتحاربني في الصباح لأنها تصير جندية.

والشاعرة الحسناء تبكي على قدميّ في الليل، وتدل الشرطة على آثار قدميّ في الصباح.

لا تصدقوا إذاعة العدو.. لا تصدقوها! إن الحرب تدور في شوارع قلبي وفي أوردتي منذ ربع قرن، ولكن الشرطة تغطي الدخان المتصاعد من جلدي.

لا تصدقوا إذاعة العدو.. لا تصدقوها! فالجنود يحرسون لساني ولكنهم لا يستطيعون حراسة قلبي. هل وصلتكم مشاعري؟ هل وصلتكم. أم ضلت الطريق. واعتقلها حرس الحدود؟

تعالوا.. تعالوا! الأرض تغلي من الشهوة، والعاشق يرسف في الاغلال!

سرحان
يحب امرأة من فرح!

• بين يوم الغفران وليلة القدر، تحول جسم سرحان إلى جزيرة.

لماذا تختفي في الأشياء؟ سألناه.

لأنني أتوحد – قال.

وأضاف: إن الطين يرتديني لأرتدي الشجر. ألم تقولوا، دائماً، أن الوطن جسد وأن الجسد وطن!

- ولماذا تأخذ شكل الجزيرة. هل تكون بلادك جزيرة بين الأوطان؟

- كانت الحروب ماء. وكنت عائماً على ثلاث حروب. وكدت أغرق ولا أصل. والآن أمد جسدي للعبور. وتنبت لي أيدٍ كثيرة كأنها شواطئ الجزر. البحارة ماهرون على ما يبدو، والآن أقترب.

• كان الحوار على رحم الحرب.

لم يكن سرحان كاملاً، لأنه لم يصل تماماً. كان سرحان يؤلف نفسه. وفي هذه السن المبكرة، كان يعترف لنا بأنه يحب.. يحب امرأة من فرح.

أين قابلتها يا سرحان؟

- في الجحيم وفي الذاكرة.. في خطيئة أمي وأبي.

وماذا كنتما تفعلان، أنت وامرأة الفرح؟

- كنت أكتب إليها رسائل من حزن. وكنت أهدد العالم بالاغتيال. كنت أكتب إليها رسائل، وأثبتها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة.

- وهل وصلت؟

- لم تصل إليها. ولكنها وصلت إليّ. رسائلي وصلت إليّ، وهذا كان كافياً لأن أتعلم المشي إليها.

• كانت امرأة الفرح التي يحبها سرحان خارج الزنزانة، تعد شيئاً من أجل عيد متوقع. كانت تهبط من الغيم المعلق على أصابع الشجر. وكانت الصحراء كالبحر، صالحة للرؤية. وكان شعراء كثيرون، وفرسان يتذكرون فلسطين، ويدعونها لحفل

الزفاف.

وكان سرحان يؤكد لنا أن امرأة الفرح ليست هي فلسطين، وإن كانت تشبهها في الحالة الوجودية وفي الوعد. وكان الناس لا يصدقون، لأن سرحان – كما يبدو لهم – ممنوع من التفريق بين المرأة والخارطة. كل ما يحبه سرحان أن يكون فلسطين.

• سألناه عن الأمر، فأكّد لنا أن الرجل لا يتزوج تراباً.

- حتى لو كان سجيناً مثلك!.

ارتبك سرحان، وصارت مشيته الرضيعة ثقيلة لأن الأسئلة كانت شاقة، فآثر الحديث عن الحرب:

- من هي عروس الحرب؟

لم نرتبك، لأننا نتقن الحوار. وأجبنا دفعة واحدة:

أن يولد شيءٌ ما، أن يولد. هذه هي عروس الحرب.

- وماذا عن الأرض؟ وماذا عن فلسطين؟.

- هذا الشيء الذي يولد هو الأهم، لأنه قادر على أي شيء.

المهم أن تكتمل الولادة، فهي قابلة الأرض وهي قابلة فلسطين.

• وفي رحم الحرب، كانت تجري العملية الكبرى. وكنا نتغير. من شكل هلامي إلى جنين. كنا نتكلم لغة واحدة. ونموت معاً بلا مناقشة. كنا نولد. وكان الحلم الذي يشبه المرض سابقاً يتحول إلى طين ونار، فنرتديه ونذهب إلى الولادة.

وفي كل حرب، كان سرحان يجهض. يكتب رسائل ويعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة. كانت رسائله تصل إليه، فيتعلم المشي من جديد، ويعود إلى رحم الولادة من جديد:

لأنني لا أريد ولادة مشوهة.

وبين يوم الغفران وليلة القدر، تحول جسم سرحان إلى جزيرة.

قال أدونيس: لا أحد يولد إلا من رماده. وقال سرحان:

هاهو رمادي يملأ الأرض والبحر. أطلت أعشاب كثيرة على الصحراء، وعاد الأسرى.. فإلى أين أعود؟

نصف الحرب نصف ولادة.

وما زلت معلقاً على مسامير الهواء.

قلنا: لا يولد أحد إلا من رماده.

• كانت شوارع كثيرة تترنح من المفاجأة. استعدنا القدرة على المفاجأة. وكانت شفاه كثيرة تتوقف عن القبل. وكان النصف. نصف معركة. نصف هزيمة. نصف انتصار. نصف طريق. كان النصف يقسم الناس إلى نصفين. وكانت الدهشة تملأ الطقس:

نفرح.. أم نحزن؟.

إن نصف الفرح هو نصف الحزن. ونصف الموت هو نصف الحياة. فمن أين تعالج الظواهر؟

من القلب دائماً.. من المستقبل.

ويعرف سرحان أن جسمه – الجزيرة عرضة للمد والجزر دائماً. لم يحزن ولم يفرح. ولكن كثيراً من الأيدي التي نبتت في جسمه بين يوم الغفران وليلة القدر قد اختفى أو تراجع. صار صعباً عليه أن يعانق المرأة التي يحبها بيد واحدة.

نصف عناق – قلنا له لكي يبتسم.

قال: إن زنزانتي صارت أضيق. وهذا حسن. كلما ضاقت الزنزانة كلما اتسع الأفق في الخارج.. وامتد الميدان.

• تساءل متشائم: أيهما أسوأ: هذا الفجر الغامض الذي ننتظر الآن، أم ذلك الليل الواضح الساطع الذي كنا نعرف أننا نسير فيه إلى اتجاهٍ ما؟.

قال آخر: في دخان المعارك نرى أنفسنا. وفي دهاليز السلام لا نرى شيئاً.

وقال متفائل: لم نخرج بعد من الليل الساطع إلى الفجر الغامض. المعركة لم تنته.

وقال صحفي يعرف الأرقام والخسائر: لماذا نقاتل؟ أليس من أجل السلام. تقولون أن السلام هو القتال، وقد قاتلنا.

- لم يهزم العدو.
- ولم ينتصر.
- نفرح أم نحزن؟
- هل هي وجهة نظر؟ هل تنتظرون قراراً بالحزن، وقراراً

بالفرح.ما هذا السؤال؟

- السلام بشع إذا كان وهماً. وفي هذه الدهاليز لا نرى شيئاً.

- والحروب لا تكون جميلة إلا إذا كانت حرية.

- أشياء كثيرة تغيرت. أشياء كثيرة. المهم والأهم هو أننا تغيرنا وتحررنا من الأسر الذي اخترناه فاستبعدنا. تغيرنا. عرفنا أنفسنا. اكتشفنا ذواتنا، وصار لنا رأي. المهم والأهم هو أننا عرفنا طريق الولادة. مشينا على شارع البداية، فمن يردنا؟

- لن نعود إلى البيت وننتظر. لن نعود، لأن البيوت أسر، والشوارع حرية. لن نعود.. لن نعود.

• حين ضاقت الزنزانة كثيراً.. أي حين صارت أقرب من الجلد إلى الدم.. حين غاصت جدرانها في دمه، كان سرحان يمشي بين الشاطئ والصحراء لملاقاة امرأة الفرح التي يحبها. وعندما يبدو أنه آخر الطريق بين الشاطئ والصحراء كان الغموض يأخذ شكل حدود. سمع سرحان صوتاً من الخلف. التفت. رأى الصوت قادماً من شرفة الزنزانة إياها.. الزنزانة التي غادرها قبل قليل. كانت امرأة الفرح تكتب رسائل إلى سرحان وتعلقها بمسامير الهواء على جدران الزنزانة. كانت الرسائل تصل إليها فتتعلم المشي إليه.

صارت امرأة الفرح حزينة. وصار سرحان يعرف من أين لا يحزن، ويختار من أين يفرح.

واصل سرحان الطريق حتى تصير جدران الزنزانة أقرب إلى دم امرأة الفرح من جلدها، تماماً كما حدث له قبل قليل.

وبين الالتفافة إلى الوراء، ومواصلة السير إلى أمام، كانت قدماه ترسمان دائرة واسعة من الماء والرمل..

.. كيف أضعت الخريف؟

- لم يتعب سرحان من الفصول، ولكنه غيّر رأيه.

هو، لا غيره، صار يكتب يوميات. لأنه أحس فجأة أن الريح المجاورة لنافذة الزنزانة تعامل السقف بطريقة مختلفة.

سيحدث شيء ما – قال وانتظر.

اجمعوا على أنه أصيب بالجنون. فلا بد أن تسقط أوراق الشجرة التي رآها تطلع من سقف الزنزانة:

وماذا يبقى من اليوميات يا سرحان؟

- يبقى أن الريح لا تسقط شيئاً فلا أحتاج إلى ورقة لرسم المشهد.

وصار للأيام طعم.

لكل شيء سبب، إلا هزيمة العرب.

وأضاف سرحان: هذه المرة تختلف.

- لم يكن مصاباً بالجنون، كما تصوروا. كان مصاباً بالشهور. لم يعترف، ولا مرة، بأية صفات أخرى. استجوبوه سنين، ولم يبدل كلمة في ملف التحقيق: تاريخ الولادة هو تاريخ الوفاة. ويوم الوفاة هو يوم الولادة. أيار وحزيران بداية ونهاية. نهاية وبداية.

- ولكنك تحيا. ها أنت تحيا.

- تلك خديعة.

- ولكنك تموت. ها أنت تموت.

- تلك خديعة أيضاً.

في تناوب هذين الوجهين، كان دائماً يضيع ويُضيّع المحققين. بين الوفاة والولادة لم يحصلوا من سرحان على تشخيص ينفع. وكان يومه القادم، بالنسبة لهم، شريط تسجيل مكرراً.

واستمر التحقيق..

ولم يتعب سرحان من الفصول، ولكنه أوشك على أن يغيّر رأيه.

- وهذا ما حدث:

اختفى شارع بطوله، هذا الخريف، في شرايين ساعد. إنني أمشي من جدار الزنزانة الغربي في اتجاه الجدار الشرقي. لم اسأل نفسي كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الطويلة. إني أبدأ فلا تسألوا. إني أتصبب، فيختلط العرق بالدم وبالجهات. صارت الرؤية أقل غموضاً. وأنا أكمل النزيف والرحلة، فأشاهد المدن لأنها اختفت في لحمي المتطاير على هذه الصحراء. إني أبدأ، فلا تسألوا. انفجرت شظايا جديدة وقديمة بجسدي، فازداد اختفاء المدن في لحمي. لقد خرجت من الخارطة إلى الأبد وتغلغلت فيّ إلى الأبد. خطوة أخرى.. خطوتان، وخرجت من طور البداية الشاق. ومن هنا، من جدار الزنزانة الغربي صار يبدو لي أنني أقترب.. أقترب، فأرى ملامح غامضة من جدار الزنزانة الشرقي. استعملوا مفكرتكم، لأنني أقترب من الهدف. إنني أرى الآن بوضوح تام، أرى الجدار الآخر.

***

هذا ما حدث.

- هل تمثل دوراً يا سرحان؟

سأله سجان ساذج.

- إني أقطع الرحلة

- ولماذا تسفك دمك؟

- لأرد على سؤالك، فالدم لا يمثل دوراً.

- ماذا يفعل الدم على أرض هذه الزنزانة؟

- يخلقها.

- لمن؟

- للفارق ما بيني وبينك. إني أختبر دمي. ربما يكون قد فسد. إني أختبر دمي وأخلق منه شيئاً. كان ممنوعاً من الخروج، فتمرد على جسمي.

فجأة، سقطت ورقة أخرى من شجرة السقف، لم يكن سرحان بحاجة إليها، لأنه كتب يومياته بوسيلة أخرى. غطت الورقة بقعاً من الدم على أرض الزنزانة. حاول سرحان أن يمنعها من اخفاء التجربة. ولكن الحارس أطلق الرصاص على يد سرحان.

• عمَّ تبحث الآن؟

- عن خريف آخر. رجل أضاع خريفاً، فماذا يفعل؟

لم يردوا على سؤاله. اختفت شجرة السقف. ولم يسمع صوت الريح المجاورة لنافذة الزنزانة.

كان يسمع صوت دمه. كان يحاور دمه. ولم يكن الحوار عتاباً أو ندماً. كان لغة تميزه عن الركود المجاور.

- لم تفعل شيئاً. لم تتحرك إلا داخل الزنزانة – قال له السجان.

- لقد قطعت مسافات ولكنك لا ترى – قال سرحان.

الدم لا يمثل.

إنه يفتح طريقاً. الدم لا يمثل.

وهل يذهب سدى؟ سأله صوت.

الدم لا يذهب سدى. إنه ينجب. كل قطرة دم نطفة حياة. ستعود شجرة السقف، وتعود الريح.

ولم يتعب سرحان من الفصول. لقد أضاعه أيار وحزيران وشهور أخرى لا يذكر أسماءها، فعثر على الخريف أخيراً. كان دائماً يحب الخريف ولا يثق به. الآن يشعر أنه هو الذي أضاع الخريف. الآن يشعر أنه قادر على الامساك به.

وتحول الخريف إلى عصفور.

وكان سرحان يسأل: رجل أضاع عصفوراً، ماذا يفعل؟.

وتذكر أنه كان يمسك الخريف – العصفور بإصبعين فقط.

أين أضاع سائر الأصابع؟ لا يذكر.

كم صار يحب زنزانته، لأنها شهدت العملية كلها، ولأن الدم فيها لايضيع. وكان يحزن لسؤال مفاجئ: هل كانت الحرب عصفوراً في قبضة يد وطار في منتصف الرحلة؟.

ولم يبق من يومياته إلا ورقة واحدة: الدم لا يمثل. الدم لا يمثل!.

وداعاً أيتها الحرب
وداعاً أيها السلام

- باب واحد لأكثر من زنزانة.

أو: باب واحد لكل الزنازين.

خرج، ولم يعجبه الأفق. قال: هذا تربة المتاهة لا انعتاق الرؤية. وقف ليبحث عن شيء يرميه فيكسر به روتين هذا الأفق، فكان القمر مندمجاً. لعنه: حتى أنت يا قمر. جمع الجهات في قبضة يده، فازداد لون الأفق خطأ. حاول العودة من حيث أتى، فكان الطريق (سابقاً) مسدوداً بالأحاديث عن الحرب البعيدة.

كأنه ينزل الآن من أمه. والدهشة عيب في الخارج. قالوا: هذا واحد من أهل الكهف المنسيين. ضحكوا منه، لأنه يستعمل كلمات مهجورة، ويسأل اسئلة أسرتها الحرب. إسم وطن، على سبيل المثال، عورة لا يكشفها المهذبون في الشارع العام. وكثير من الجنود ماذا يفعلون الآن؟ يحرسون الأخلاق مثلاً.

كأنه غضب وقال: قادم من الكهف؟ نعم. ولكنكم ذاهبون إلى الكهف. مد يده والتقط حفنة وحل، وصاح: اعتبروها سؤالي: ألعيب في الخروج من العبودية، أم في الذهاب الاختياري إلى العبودية؟. وحين دقق الخبراء والشعراء الفاشلون في ذرات السؤال قالوا: سرحان يهذي. وكانت سوق البضائع مزدحمة بالمتفرجين. وكانت الأسعار مخفضة للأبطال ذوي الحناجر المصقولة. وكان الشهداء عراياً على الرمل. وكانوا، كعادتهم، صامتين.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

قال لهم: لا تقفلوه، لأن الأفق باب شديد الإحكام. والمدى مفتاح صدئ. كان من السهل على عينيه أن تخترقا البوابة الفولاذية المغلقة، ولم تكونا قادرتين على ملاقاة هذا الأفق المعاكس: «ليس هذا بخار الدم». ملوك يخرجون من المقاعد التي كسرها الغضب [سابقاً]. ولغات مهجورة تخرج من الكتب التي أحرقها الغضب [سابقاً] وتتجول في الشوارع والإذاعة والمكاتب الرسمية. وكل
شيء للبيع. وحين حاول العودة اتهموه بالبحث عن السجن

الاختياري،

وقالوا: هذه حرية اختيار، فأعادوه مرغماً.

- كنت أريد هذا. أنا الذي طلب. وليس هذا عقاباً!.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

هو: باب الحرية.

دوّن الجملة التالية: وداعاً أيتها الحرب! فأحس أنها جملة ناقصة. وقعت منه جملة مرادفة: وداعاً أيها الوطن!

أعجبته العبارة، ولم يفهم المعنى، فحاول أن يملأها بأي معنى.

ثبت العلاقة بين الحرب والوطن، حتى تحولت إلى هاجس. إذا ودعت شيئا فلا بد من أن تعانق شيئا آخر. وداع الحرب معناه لقاء الوطن. فهل هذا ما حدث؟

شطب ما كتب. وحاول تركيب المعادلة من جديد: وداعاً أيتها الحرب!. فإلى أين يقودني هذا الوداع؟ هل هو طريق لقاء الوطن!. إذا ودعت شيئاً كهذا فلا بد من أن تودع نفسك.

أعاد النظر: آن للفكرة أن تسكن صخرة. وآن للدم أن يتحول إلى سنبلة. آن للوطن أن يترجل عن صليبه وعن تجريدي. آن له أن يعود من رحلة القصائد والمؤتمرات والتبرعات. وآن للوطن أن يصير وطنا!. عادياً، وبسيطاً، ومملاً ككل البلدان. آن له أن يكون تقليداً يومياً، لا إبداعاً شعرياً!. وآن له أن يصير شيئاً قابلاً للملامسة.. واللعنة!.

كان الحارس نائماً. وكان حلم سرحان يتجول، حرًا، في فضاء الزنزانة:

من أجل هذا تكون الحرب. من أجل هذا يكون الموت. ونحن لا ننفق العمر كله، ونهدر الحلم والرؤيا إلا من أجل خيبة أمل واقعية واحدة. من أجل صدمة على حجر. ومن أجل أن نعرف كل العذاب، إلا عذاب الندم. أيها الوطن المتسكع بين الحروب! لم تكن جميلاً فحسب، ولكنك كنت قاتلاً في جمالك، وجميلاً في قتلك. فماذا صرت الآن؟ لقد حملناك من أول العمر إلى كل الحروب من أجل أن تكون فنكون. فماذا صرت الآن؟ لقد نزلنا من القصيدة إلى الرضا بالخيبة من أجل أن تكون. وماذا حدث، حين كنت – لم نكن. وحين كنا – لم تكن. وفي الحرب قلنا: تكون. وها نحن نقول للحرب: وداعاً. فماذا تكون؟.

عثر على نفسه يبكي. اختلط الدمع بالكلمات وبالحلم، فتحول الوطن، أمامه، إلى لوحة غامضة. «لم تكن واضحاً إلا في القلب أيها الوطن».

وخاطب نفسه: يا سرحان! انتظر قليلاً. إن للجنون حكمة. ولكن ليس للحكمة جنون.

وحاول أن يعدل العبارة:

وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيتها الحرية!.

أعجبه التعديل، ولم يفهم المعنى، فحاول أن يغزوه، حاول أن يغتصبه.

واكتشف العلاقة بين الحرب والحرية، حتى تحول إلى هاجس آخر. وتذكر: حين جاءت الحرب كالفرح، هكذا كتب دقيقتئذ، غاصت جدران الزنزانة في لحمه، فحمله وسار إلى الشاطئ. ورأى من بعيد شعوباً تعثر على إرادتها وطاقاتها وتسير إلى الحرب لتبدع حريتها.

وفي منتصف اقتحام الحرية، أعادوا الشعوب إلى بيوتها وأسرها. وأعادوا الحرب إلى مؤسستها. وأعادوه إلى الزنزانة. (انتهت الحرية وأعيد الناس إلى واجباتهم الوطنية).

باب واحد لأكثر من زنزانة.

ومرة ثانية، كان سرحان يصب نفسه في مأزق. «أن أبدع مأزقي بيديّ خير لي من أن يعيروني فرحا بالأجرة من أجل أن يشرعوا الخطأ».

وكانت الشجرة تخرج من سقف الزنزانة إلى سطحها. وكان، هذه المرة، لا يراها.

قال السجان: هو الحلم.. يا سرحان؟

- كلا. أين الشجرة التي كانت هنا؟

- كنتُ عائداً من الحرب اليوم. ورأيت شجرة على سطح زنزانتك. هل هي شجرتك؟

- نعم. نزلت من سقف الزنزانة أيام الحرب. ألم تراها؟

- منذ عشرين سنة وأنا حارسك، ولم أر شجراً. الشجر لا ينمو في العتمة. الشجر ينمو على السطح.

- وماذا تفعل شجرة على سطح زنزانة، ماذا تفعل؟

- تجعل المنظر أجمل.

- للمشاهدين، لا للسجناء.

- ولماذا تغضب؟

- لا أغضب. ولكنني لا أفهم. أنا أول من رأى. رأيت بالقلب والعينين. أتذكر يوم اتهمتني بالجنون حين قلت ان الإسمنت يزهر من صوت رصاصة؟.

- ذلك انتهى. فغادرتك الشجرة. هكذا تريد أن تقول؟.

هذه المرة، لم يكتب سرحان: وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيتها الشجرة!

بقي واقفاً بين الوداعين في انتظار سجان آخر يشهد أن الشجرة تدلت من سقف الزنزانة.

كان مضرجاً بالوداع والكلمات الغائبة. ليس البركان ما يهزه؛ تحركه رغبة في الاشتباك بحبيبته الزانية، ليسترد منها الكلمات التي كوّنت مصيره. لست نادماً على شيء أيتها القديسة الزانية. ولكني أرغب في أن تبلغك انفجارات روحي. أريد أن أقشرك كلمة كلمة لتكوني عارية مني. وأريد أن أحتسي دمي الساري فيك، قطرة قطرة ليعود منك اغترابي، وتكوني معدة للسلام بدون جنيني. أعيدي إليّ عذاب اللذة الدموية التي ملأت بها أحشاءك. أعيدي إليّ ذبذبات البرق التي كنت أصبها فيك. ثم افعلي ما تشائين يا حبيبتي. لم يحبوك ولم يخرجوا من دمك. وأنا أحبك، وترفعين دمي ستائر تخفي خيانتك عن الشارع. وكم أحبك يا حبيبتي.

أطل سجانه الجديد فجأة، كأنه خارج من خلف تلك الستائر. سأله سرحان عن الحبيبة، ورجاه أن يبلغها الرسالة.

- لا أهرّب الزلزال. ولا أحمل ورقة طلاقي. قال السجان الجديد.

- حدثني عنها أرجوك. حدثني عنها.

- كانت خائفة من الشيخوخة. وانتهت الحرب. وصارت تخاف السلام.

- هل تتكلم؟

- أحيانا، في أواخر العاصفة، وفي المطر الأول. وفي

مطالع الحروب تكون بكامل شهوتها.

- استعدادا للعرس، أم للهرب؟
- استعدادا للصمت. هكذا يقول الشعراء.
- وماذا تقول أنت؟
- استعدادا للخيانة.

[لو استطعت أن أملأ البلاد بالسواد

وأن أهدم الساعات من البكاء

لفعلت ذلك من أجل أن أشهد أمام منزلك

مجيء الصيف بشفاهه المحطمة

ومجيء العديد من الأشخاص متشحين بثياب ميتة] (بابلو نيرودا)

- هل يصلها دمي؟
- يصل إليها برقوق كثير. يقولون إنه هدايا آخر الشتاء.
- قل لي: هل رأيت شجرة على سطح الزنزانة وأنت قادم؟.
- نعم. وتجمع حولها الصحفيون. وقالوا إنها بشارة السلام.

باب واحد لأكثر من زنزانة.

أو باب واحد لكل الزنازين.

وحاول سرحان إقناع السجان بالهرب، لأن لزنزانتيهما باباً مشتركاً.

- أين زنزانتي؟ قال السجان.
- في البيت. هل أنت حر؟
- أنا حر هنا. وهذا واجبي.
- وماذا لو هربت وحدي؟
- أطلق عليك النار.
- يحدث شيء مدهش: تختفي الشجرة عن السطح وتطلع من السقف. لا يراها الصحفيون، وتختفي البشارة.
- وتكون لي. ولا يحرسني أحد.
- وماذا لو أطلقت سراحي وتجاهلت؟

- تكون زوجتي في انتظارك. ولا يبقى لي عمل هنا. أموت من الوحدة والبطالة والتفكك.

باب واحد لزنزانة سرحان وبيت السجان.

- ألا تستطيع أن تكون حرا بلا قهري؟

- لا أستطيع، والزوجة مشتركة.

- ما كنت تقول هذا الكلام من قبل. كنت تقول اني سارق.

- الحرب.. الحرب تغير.

دوّن سرحان عبارة جديدة في السطر الواقع بين وداعين:

وداعاً أيتها الحرب.. وداعاً أيها السلام.

أعجبته العبارة، وأعجبه أن لها معنى لا يحتاج إلى برهان. وتأهب لحوار طويل مع النفس: سرحان.. يا سرحان! لماذا أضعت السلام؟ كان السلام أيضاً في قبضة يدك. وكانت الحبيبة في أوج الصمت. لماذا ضاع منك السلام.

... لأني أضعت الحرب. السلام لا يولد إلا من نهاية الحرب، ولا يسكن الحالة الواقفة بين حربين. رجل أضاع سلاماً، ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟ والحرب هاجرت. أو وضعت في زنزانة يحرسها الخصمان. يحرسها الخصمان.. ماذا يفعل؟

... لا يستسلم.

تدخل السجان قائلاً: ستأخذ شيئاً يا سرحان.. ظل الشجرة الطالعة على سطح الزنزانة ستكون لك.

- فوقي ولا أراها. مني ولا أبلغها.

القلب بعيد عن العينين ولا يلتقي بهما. هل يرفض القلب العينين؟

لا أرفض.. لكني لا أضع قلبي في صدر سجاني، وأعيش بالوساطة.

شجرة الزنزانة لي. أنا أبدعتها. وهي ليست هدية. والسلام شيء اخر.

شيء آخر، ولا أحارب سدى. وليس لحرب طهارة الينابيع مثل حربي. هي حرب الحب ليكون الحب سيد الطقس والشجر. تغسلني على ضفاف الأنهار البعيدة، تمشطني، تجففني،

وتطهرني. ولا أقتل الخطيئة، وأخلص نفسي والهواء من خطأ يتكاثر.

وفجأة، جاءه الوطن متعبا. تصبب الضباب من اسمه الذي يغطونه، في الخارج، كما يغطون العورة. وأطلت الحرب خلفه بادية التعب كأنها تسير إلى جنازتها، وحولها ضباط يقلدون الابطال.

قال سرحان: وداعاً أيتها الحرب!.

ثم استدار الوطن إلى الخلف كأنه خارج من فضيحة، واختفى من ثقب الباب إلى الأفق الغامض المنهمر من كل الأطراف. قال سرحان: وداعاً أيها الوطن. وبكى كصفصافة. وحين مد يده إلى صدره، أمسك دقّات القلب الباقي، فصاح: إلى اللقاء أيها الوطن. وجلس كالنسر.

(هذا ما كتبه سرحان ليلة عيد ميلاده).

- شجرة تخرج من غابة.. ماذا يحدث؟

تجلس على قارعة الطريق. تكون محطة العصافير المتعبة، واستراحة المسافرين.

تبقى وحيدة ونافعة، ولا تخسر الغابة شيئاً.

كيف؟

في الغابة لا تعرف الشجرة تاريخها. هناك لا يبحث الناس عن ظل. هناك يبحثون عن بقعة شمس، لأن الغابة ليست طريقاً. هل تفهم؟

- متى وصلت؟

- في هذا اليوم.

- وهل يعنيك هذا اليوم كثيراً، هل يعنيك؟

- نعم ولا. خرجت أمي من الغابة، تركتني هنا. بقيت مسمراً في مكاني، ومسافراً في زمان الآخرين.

- وماذا تفعل على قارعة الطريق؟

- هي الشجرة. ويعرفون أن الزنزانة بلا سقف وجدران. يعرفون أنها طريق. وهذا ما يميزها عن البيت – الغابة.

- كيف تقضي الوقت؟

- عندما يقتلون العصافير أشعر أن العصافير تطير في دمي وعندما يقطعون الأغصان، أشعر أن كلماتي بقيت بدون بقية.

- شعر؟

- لا. هذا نزيف الوحدة. وصوت المساء المبكر.

- وعندما تنشب حرب؟

- أتذكر أمي. وأبحث عنها بين الاشلاء المتزايدة، فتزداد صورتها وضوحاً وبعداً.

.. كانت تعاقبني على الشكوى عندما أحمل إليها بكائي من آخر الطريق. وكانت تعيدني إلى الساحة التي تجمعت فيها الدمعة، لأجففها هناك وأعود اليها يابساً.

- وماذا تفعل في مثل هذا اليوم؟

• ماذا يفعل شخص في يوم ميلاده؟

- إذا كان مسافراً في الصحراء، يقرأ أبياتاً من الشعر البدوي، ويحول الكآبة إلى قمر.

وإذا كان مواطناً يضع الورد على قيوده، ويرقص للحرية الواقفة خلف الباب.

وإذا كان شريداً، بحرية، يطلب من القصيدة أن تحول حريته إلى حذاء للوصول إلى وطن.

وإذا كان سجيناً، مثلك، ماذا يفعل؟

• يحصي عدد الأيام التي قضاها في السجن، وينسى الأيام الباقية. اليوم الفاصل بين الأيام الماضية في السجن وبين الأيام الباقية هو العيد.

توقع سرحان سؤالاً آخر، ولم يسمع صوتاً. كان وحيداً وكلياً في تلك اللحظة. كان يحاور نفسه ولا يبلغ الحلم ابداً. اللحظة التي ولدت فيها صنو اللحظة التي تموت فيها

والليلة.. الليلة سلمته أمه إلى سجن العمر. لم يعش كما يشاء. ولا يبدو أنه سيموت كما يشاء. «حركني الحب فصرت اتكلم». وهذا اليوم يأتي في موعده كل عام ولا يتعب. كيف عرف الموعد؟ أحس سرحان بذلك الوجع السنوي الذي لا يصدر صوتاً ولا يدوم، فعرف أنه ولد الآن. ليس التاريخ على ورقة، فالأوراق مصادرة. حك دمه وهدأ. تماما كتلك اللحظة التي يفاجئه فيها الوجع السنوي الذي لا يصدر صوتاً ولا يدوم، ليذكر حبيبته الشريرة التي اختفت في أوج اللذة.

ذهب القمر إلى البادية ليتنزه، فضاع. كيف يدون يوميات يوم عربي بلا ضجة. وهذا هو يومه الشخصي.

وذهبت الطفولة إلى البئر لتشرب، فغرقت. كيف يدوّن يوميات يوم عربي بلا حزن. وهذا هو يومه الشخصي.

كان منذ المساء يعد السرير والقلب ويستدرج الذكريات. لم يضيئوا له شموعاً ليعرف سني عمره. وفي الزنزانة لا يوقدون الشموع. عد أضلاعه فوجدها ناقصة. لامس دقات قلبه فوجد الشهداء هادئين. وفي الوقت المحدد، في انفجار الوجع السنوي، تبعثر الوقت والذكريات وعلى قارعة الطريق لم يتوقف

المسافرون، ولم تمر العصافير. وارتفع سرحان إلى خاصرة السماء.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يقتلون العصافير

أشعر أن العصافير طائرة في دمي.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يوقفون الرياح

أحس بأن كلامي بدون بقية.

هكذا قالت الشجرة:

والربيع يشردني

خارج السنة العربية.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يصل اليوم

تبتدئ المجزرة!..

نثر سرحان حفنة من الحصى، وحاول أن يحصي خسائره. فأحس بأنه موجود. وحين أراد أن يحصي منجزاته أحس بأنه غائب.

لست مسؤولاً عن حضوري – قال – ولكنني مسؤول عن غيابي. حرك قبضة يده لتحطيم الفارق فاصطدمت بسقف الأفق، وسقط غبار كثير.

لماذا يعنيني هذا اليوم؟ ألأنه يومي الشخصي، أم لأن القمر ذهب إلى البادية فتبنته القبيلة، وحين حاول العودة رجمته؟

- ليس لحزني مأوى. وللفرح وطن واحد.
- كيف تقتل الوقت؟
- ليس مهما أن اقتل الوقت. المهم أن أحييه.
- وتبقى مشاعاً؟
- في الغابة لا تكون الشجرة. على قارعة الطريق أفضل.
- وفي الزنزانة؟
- شارع يخرج من ضلعي – أنا أردت.

ازدحم الشارع بالمارة وكان بينهم سجانون وجدوا عملاً – صدفة. هذه هي المسافة بين المسامير والخشبة. هذه هي

المسافة. وهي ليست زنزانة.

وهنا أسكن.

هذه ليست مسافة – أخطأت.

هذه برهة تتطور. هذه هي.

- وأنت؟

• أختار ميلادي. أمي هي الصدفة. وشارعي – زنزانتي – شجرتي من صنع يدي.

«يا حبيبتي

تكونين لأنك تذهبين

أحبك، لأنك الوحيدة التي تجعل التوتر مشنقة صالحة للصعود والاقامة.

دقي جرس الباب، فلن أفتح. والجنة مأوى العاجزين أو الخائفين.

أسوأ ما في النساء أنهن بطيئات في الوداع. وأنت لا تأتين. ولكنك تذهبين بسرعة تجعلني ذاهبا في الوداع القصير.

هكذا، وبك.. استطيع معايشة الوطن. التوتر أو الركود. ولا يحب الوطن الجاهز الموروث إلا الكسالى أو النساء البطيئات في الخروج من السرير والوداع.

يعدون الشرطة، ثم يبحثون لها عن وطن للعمل. هذا هو الوطن الجاهز الموروث.

وأنا انتظركما معاً، أنت والوطن الآخر. فلا تأتيا قبل الوقت ولا تذهبا بعد الوقت.

أمي هي الصدفة، الجاهز هو الصدفة. وأنتما رغبتي، وخيبتي حين تصيبني لا يصيبني الندم.

- لم تكتب يوميات اليوم العربي كما وعدت؟

• لم يبدأ، فكيف أؤرخ الغد؟

- والحرب؟

• لمن يحارب، لا لمن يخطب، لا لمن يقلد الطغاة.

- ليل وينجلي. واليوم خير من الامس.

• والغد خير من اليوم إذا عرفت. ولا يكون اليوم يوماً إلا

إذا كان غداً. احذر القناعة لأنها ذل لا يفنى.

- متمرد أبداً؟

• على يومي ليكون غداً. كل ما يصل لا ينفع. الذكريات للهرب لأن بقاءها يجمدني.

- من أين جئت؟

• من حيث لا أريد أن أعود.

- والجذور؟

• هي الرحلة في الأفق، لا النوم تحت الرضا.

- وماذا علمتك الحياة؟ هكذا يسأل الصحفيون.

• أن أرفضها كما هي. أن لا أرثها. أن أبدعها. هكذا تكون صديقتي. ثم أرفضها حين تكون كما أردت، ثم أعيد إبداعها. لأن الحلم متقدم ابداً.

- وماذا يحدث.. ماذا يحدث في لقاء الوطن والحرية؟

• يبقى واحد منا هنا

- لماذا؟

• لا بد من خطأ بعد تدمير الخطيئة، لا بد من خطأ. وهذا حسن.

آه، من أول العمر.. من أول العمر الذي لا أول له، أمشي في هذه الزنزانة – المكافأة، من أجل أن أصل إلى الزنزانة – العقوبة. قد يفاجأني ميلادي بهذه الهدية المفرحة، ولكنني اكون قد انجزت.. انجزت شيئاً. وماذا تكون الحرية غير اختيار القيد!. هذا هو العمر.

لم يحص سرحان خسائره كلها، لأنها انقلبت إلى أرباح حين وجد نفسه هنا. لم يحزن إلا لسبب واحد هو: أنه في يوم ميلاده لم يكن طازجاً كما توقع. ذهب القمر إلى البادية ولم يعد، فابتكر قمره الخاص. وذهبت الطفولة إلى البئر وغرقت، فابتكر طفولته الخاصة. ولكن الحرب ذهبت إلى الحرب فغاصت في الأعداء ولم تعد إليه ليحاسبها وليحاسب نفسه فيها. هل يكفي ان تغير الحرب أعدائي لكي تغيرني؟ سؤال مر بالبال ولم يعثر على إجابة. هل يكفي أن يبكي أعدائي لأفرح؟ سؤال مر بالقلب ولم يعثر على إجابة. وهل يكفي أن يخسر أعدائي إصبعاً من يدي المسروقة لكي أملك يدي؟ سؤال مر بالضمير واستقر.

- يا سرحان! الحرب في يوم ميلادك؟
- وهل كان لي يوم واحد خارجها!

وغنى..

هكذا قالت الشجرة:

عندما يقتلون العصافير

أشعر أن العصافير طائرة في دمي.

هكذا قالت الشجرة:

عندما يوقفون الرياح

أحس بأن كلامي بدون بقية

والربيع يشردني

خارج السنة العربية

هكذا قالت الشجرة:

عندما يصل اليوم

تبتدئ المجزرة.

في الصباح، وحين مات فوج آخر من العصافير، أحس سرحان بأنه لم يكن يحتفل بيوم ميلاده. ولم يكتب إلا مقدمة صغيرة ليوميات يوم عربي قادم. كان يحتاج، على ما يبدو، إلى أن يولد كُلّ يوم لكي يصل إلى هذا اليوم.

ماذا يعنيني من عيد ميلادي؟ أن أجدد ولادتي. أن أولد دائماً.. أن يكون عمري كله لحظة واحدة في يوم عربي جديد.

حدث شيء كثير، وعادوا إلى طقوس البكاء القديم. هل تغيروا؟

ولم ينس محدثي المثقل بالأمل المتجدد أن يبدي اعتزازه بتفاصيل الذكريات. نفض الغبار عن الشريان الممتد إلى يافا. وقال: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادم من هناك. لقد اشتعل الربيع في فلسطين.

ومد يده ليقلد قامة العشب الذي رآه في الأسبوع الماضي في فلسطين الحزينة. كما هي.. كما هي: بساط أخضر يطلع من السر فجأة ويتفجر برقوقاً وكل الالوان.

يصبح الرجل طفلاً، دائما، حين يقابل أمه. وهذا الرجل العائد من العودة يحدثني عنها كأنه يصلي.

لم ير فلسطين منذ عام الخروج الأول. كانت تتجدد في الحلم وتتجلى في الرؤيا. وحين رآها كانت أجمل. هجمت عليه، بكليتها، فلم يمسك بأي طرف من أطرافها. كان يصف ويتلعثم. كل حديث عن هذا الوطن تأتأة. ومن يستطيع تنظيم عواطفه لا يكون عاشقاً. يكون محترفاً.

وسرقتها – قال.

لم ينتظر سؤالنا، وتابع: أخذت أفراد العائلة، وسرنا في أزقة يافا نبحث عن بيتنا القديم. تغير شيء كثير، ولكن حاستي لم تتغير. ووجدت البيت. لم يسمح لنا سكانه الجدد بالزيارة. ودار حوار:

- هذا بيتنا. جئنا لنزوره. لا لنسكنه. فلا تخافوا.
- نحن لا نفهم شيئاً. ولا نسمح للغرباء بالدخول.
- أنتم الغرباء.
- نعرف ذلك.
- وهذا بيتنا.
- نعرف ذلك.
- نلقي عليه نظرة ونعود.
- ممنوع.
- نلتقط صورة له من الداخل ونعود إلى غربتنا.
- ممنوع.
- ما هو الحل؟
- لا حل.

وانتهى الحوار. أغلق «السكان الجدد» باب البيت بذعر واضح.

وانتشر أصحاب البيت على الدرج وفي الحديقة. انصرف بعضهم إلى التعرف على أغصان الشجر وعلى التربة السمراء. وانصرف بعضهم إلى «سرقة» البيت والحديقة بالكاميرا و«سرق» البعض حفنة تراب للذكرى والطهارة وتجديد الروح.

هم يسرقون البيت

ونحن نسرق صورته. يا للمفارقة.

ولكن، لماذا رفض «السكان الجدد» تلبية رغبة أصحاب البيت بالزيارة؟

من الصعب العثورعلى إجابة واحدة عن هذا السؤال. ثمة عوامل نفسية وسياسية تشتبك في نفسية الساكن السارق. أهمها: اختلال التوازن النفسي في شخصية السارق عندما يواجهه الضحية بالعودة. لم يكن معداً لهذه المواجهة التي تشرط نظام أمانه اليومي والتاريخي، الشخصي والقومي. فقد اعتاد أن ينسى ان نسيج وجوده يبدأ من إثم وخطيئة هنا. واعتاد أن ينسى إدراك أن تحول غربته إلى مواطنة جرى على قناعة بقاء الحاضر – الغائب (العربي) غائباً. وهذه القناعة نمت على بقاء عجز الحاضر – الغائب أبدياً. من هنا كانت طمأنينته قائمة على حساب قابل للتغيير. هذا التغيير يعيد الأسماء الحقيقية إلى الأشياء.

ما كان لهذه العملية أن تتم بدون حضور هذا الزائر – الحقيقة، الزائر – المشكلة، الزائر – المواطن، الزائر – الجوهرة. كل خلايا الصراع العربي – الإسرائيلي تتيقظ في أقصرلقاء وأقصر حوار على عتبة هذا البيت – الرمز في يافا.

هل أعطى الزمن هذا الساكن الجديد حقاً في أن يكون؟ وهل خلع الزمن هذا الحق عن المالك وحدد له مصيراً في أن لا يكون؟. أن الزمن – بشكل مطلق – قادر على تغيير معاني الحقوق. ولكن الزمن الصهيوني هو زمن العنف. والعنف لا يمنح حقاً. ولكنه قد يساعد على تكريس الإثم إلى أن تتغير موازين العنف في الصراع فتتعرى الظاهرة الصهيونية من دعواها ويسقط غبار الدعاية عن جوهرها السافر.

هذا هو صاحب البيت. وهذا هو سارقه. فكيف يواجه السارق هذه اللحظة الحادة؟ وكيف يرد على الأسئلة الناطقة أو الصامتة؟ كيف يجالس شبحاً أو كابوساً! الآن يعرف أنه يسكن بيتاً مسكوناً بالأشباح..

بعد حرب تشرين، انهارت قاعدة مادية كبرى من أعمدة هيكل الدعاوى الصهيونية. وصارت النفسية الإسرائيلية العادية تتوقع قدوم مثل

هذا الزائر – السؤال. وصارت تعرف أن الزائر ليس سائحاً فضولياً. لكل بيت صاحب. وقد اقتربت مسيرة عودة صاحب البيت خطوة واحدة. فهل يكون إغلاق الأبواب حلاً لبلوغ الحق الفلسطيني سن المشي؟ وهل يكون إغلاق الأذان حلاً للأسئلة التي تشكل بلبلة في الطمأنينة الصهيونية؟.

في مكان آخر، فتحوا الباب

قال محدثي العائد من العودة:

سرقنا صورة البيت بالكاميرا، وذهبنا نبحث عن بيت زوجتي. تغيرت أشياء كثيرة في يافا، ولكن حاستي لم تتغير، فوجدنا البيت. كان مكتظاً بعائلات يهودية من أصل بولندي. كل عائلة مكدسة في غرفة. وحبال الغسيل في كل الممرات وعلى كل الشرفات. وتساءلت هل هذه هي جنة اليهود؟ هل جاءوا وخاضوا كل هذه الحروب من أجل هذا المصير البائس؟.

استقبلنا أحد السكان المسنين بقلق وأدب. قلنا له: لا تقلق. جئنا لنلقي نظرة على بيتنا. هذا بيتنا.

قال: لا تواصلوا التفسير. فقد شعرت بذلك. كنت لاجئاً، وأفهم مشاعركم. تفضلوا.

وتحولت زوجتي إلى دموع. كانت تحمل صور أمها في يوم الزفاف، هنا.. في هذه الغرفة. وكانت في طريقها إلى البيت تتوقع أن ترى أمها العروس جالسة هنا في أوج شبابها وزينتها محاطة بالزغاريد والعطر والرقص. ولكنها وجدت هذا المأتم.

قال الشيخ اليهودي: أعرف أن هذا ليس بيتي. ولكن ما ذنبي؟. الحكومة أحضرتني إلى هنا.

الحكومة أحضرته. أعدت له هذا المصير. الحكومة قالت له: هذا بيتك الأبدي. هذا بيت إسرائيل. الحكومة قالت له: لن يعود العرب.. لن يعودوا، لأنهم غير قادرين على القتال.

صار الوعي الإسرائيلي مسدوداً. لم يصلوا إلى هذا السؤال السهل: ولنفترض.. لنفترض أن العرب صاروا قادرين على القتال. ألا يكون هذا بيتي؟ وهل اكتشف أن حقي باطل. وهل كل شيء يتوقف على أن يكون العرب عاجزين عن القتال. ماذا يحدث لو حدث العكس.

وهذا ما حدث. الان صاروا يسألون. تحولت الأرض المحتلة إلى بحر من الأسئلة: هل قطعنا كل هذا الشوط من الخداع دون أن ندري؟ والصحف الإسرائيلية، بعد حرب تشرين، مليئة بتسجيل هذه الظاهرة:

طرح الأسئلة عما حدث.. وعما يحدث.. وعما سيحدث.

أكبر الأسئلة كان: «هل لنا الحق في أن نحيا في هذه البلاد». و«هل مشروع إنشاء الدولة صحيح أم خطأ» و«الحركة الصهيونية سلبت العرب أراضيهم وبيوتهم».

أسئلة صعبة ومحيرة يطرحها الناس العاديون والشباب خاصة. أسئلة تمس قدس الأقداس الصهيونية، منها التشكك بمشروعية المشروع الصهيوني: كل ما ندعيه من حق قام على مبرر واحد هو: الانتصار. فماذا يحدث لو هزمنا مرة. الأسطورة لا تعنينا. الأسطورة تعني أجدادنا. ولم يتبق لنا إلا المبرر الثاني: الحرب. وها نحن نكتشف بأننا معرضون للهزيمة. فما الحل؟.

حدث شيء كثير، وعادوا إلى طقوس البكاء القديم، فهل تغيروا؟

رداً على صعوبة الأسئلة وخطورتها، شكلت الحكومة الإسرائيلية، لأول مرة في تاريخها، وزارة للإعلام في محاولة لمواجهة تدفق الشك الذي جرح العلاقة بين الإسرائيلي وبين «الوطن». وقال وزير الإعلام إن وزارته «ستهتم بدعم حب البلاد».

ماذا يعني أن تنصرف وزارة إلى تعليم حب البلاد؟. معناه أن كثيراً من الإسرائيليين لا يحبون «بلادهم» لأنها ليست بلادهم.

وهنا. هنا، جوهر الخلل التاريخي العميق في مجمل المشروع الصهيوني. فالصهيونية لم تستطع طيلة تجاربها وتطبيقاتها أن تخلق علاقة الحب التلقائي بين الإسرائيلي وبين البلاد التي تدعى أنها وطنه. في أول محك صعب لهذه العلاقة سقطت قشرة الحب الاصطناعي، لأن السلاح – وحده – كان هو القلب. إنها لفضيحة صهيونية أن تقام وزارة لغرس قلوب اصطناعية للإحساس بالحب بين اليهود وبين أرض فلسطين.

ما أقسى التجربة! لقد شاعت العلاقة بين اليهودي وفلسطين وانتعشت في الزمان. وها هي تجد مقتلها في المكان. لأن العلاقة بين الزمان والمكان في الوعي الصهيوني علاقة مصطنعة. من السابق لأوانه القول، ولكن يمكن التكهن بأن إنشاء المشروع الصهيوني أفدح كارثة تلحق بالروح اليهودية التي ازدهرت في الزمان. وثمة مقدمات كثيرة تدل على أن إسرائيل تهدد الإبداع اليهودي والمساهمة اليهودية في الثقافة العالمية بأقسى الخسائر.

وأن الإسرائيليين العاديين أنفسهم لا يتحدثون عن «الوطن». إنهم يتحدثون عن «المشروع» الصهيوني. وثمة فارق شديد الاتساع بين

الوطن وبين المشروع. ومن أحدث علامات تفسخ العلاقة بين الإسرائيلي وبين أرض فلسطين: تشكيل حركة جديدة في تل أبيب «حركة التغيير» أسسها مجموعة من أساتذة الجامعة وأصحاب المهن الحرة. وقد قال البروفيسور امنون روبنشتاين في الاجتماع التأسيسي للحركة، نقلاً عن إحدى الصحف الإسرائيلية، إن كل شاب من خمسة شباب في إسرائيل يدرس إمكانية النزوح عن البلاد.

أن تفسخ هذه العلاقة بين الإسرائيلي وبين الأرض الفلسطينية في أول ضربة عسكرية حقيقية يكشف عن زيف هذه العلاقة من أساسها، ويعيد إلى الأشياء أسماءها الحقيقية: هذا المواطن ليس مواطناً. إنه محتل. وهذه الأرض ليست وطنه. إنها وطن الآخرين. ولكن لم يكن بوسع هذه الحقائق أن تلامس الوعي الإسرائيلي بالمحاكمة الفكرية وحدها. كان لا بد من ضرب الأساس المادي للقناعة الإسرائيلية بصواب الخطأ. كان لا بد من خدش سلاحه الذي كون قناعته.

وماذا تقول يا صديقي العائد من العودة؟

- هل كانوا هكذا قبل الحرب؟ لقد فوجئت بأنهم عاديون.. عاديون جدا. ولم أر في طول البلاد وعرضها معالم الحضارة التي يقولون إنها التحدي بيننا. ولاحظت أن حياتهم شاقة. الغلاء فاحش. التنظيم الذي يتحدثون عنه فوضى. الخطوط التليفونية شبه معطلة. وسائل المواصلات غير مريحة. و.. وأين قوتهم؟ لقد وضعوا كل قوتهم في الجيش. ووظفوا كل طاقاتهم ومواردهم في الجيش. ليسوا دولة تملك جيشاً. إنهم جيش يملك دولة. وماذا يحدث حين يهزم الجيش.. ماذا يحدث؟

- ماذا رأيت أيضا؟

- قريباً من عكا.. رأيت منزلاً عربياً مهدوماً. قالوا إن السلطات الإسرائيلية نسفته لأن فدائياً فلسطينياً مر من هناك. وقد رفعوا على أنقاض البيت لافتات، بثلاث لغات، كتب عليها: «من أجل السلام. من أجل السلام. من أجل السلام».

وقال محدثي: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادمة من هناك: ما زالت الأرض كما هي: بساط أخضر يطلع من السر فجأة، ويتفجر برقوقاً وكل الأزهار وكل الألوان.

وهي لنا.

ذاهبان إلى البحر

ما كنت أبحث عن العلاقة بين الحزن والبحر. ولكن حزيران الهزيمة كان يرسلني إلى الشاطئ، لعل الأزرق الواسع يقنعني بأن هنالك في الكون شيئاً أكبر من الحزن وأجمل.. شيئاً غير قابل للهزيمة.

في تلك الأيام العربية الفلسطينية كنت أكتب:

«الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك، وتطفئ نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة، وتتساءل: لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك.

«بمناسبة.. وبغير مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون، وهم يمزحون، وهم يتبادلون القبل، يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة حب وصفاء، فينسونك قليلاً؟. كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطئ؟ كيف؟

«تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطئ. تشرب البيرة وتصفر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظرات. تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكل وحدك. تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطئ لتنسى أن اليوم عيد وأن أهلك ينتظرونك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة «لتثبت انك موجود» فتذكر كل شيء. وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك. وتسير»..[1]

هكذا كانوا يردوننا عن شاطئ حيفا، عندما كانوا ينتصرون بلا ثمن، وعندما كنا ننهزم بدون مقابل. ولماذا البحر؟ لماذا البحر؟

والآن، ماذا يحدث في الأيام الإسرائيلية على الشاطئ ذاته؟ لعل ذلك الجندي الذي جلس على الشاطئ، وشارك في منعنا من مواصلة يومنا على البحر، هو الذي كتب بعد تشرين:

«أنا ذاهب لأتأمل البحر. وآمل في أنه ما زال كبيراً وأزرق، وحيداً ومغلوباً على أمري جئت من الصحراء. وبت أشعر بالجفاء لكل ما كان قريباً مني ذات مرة. لذلك فأنا ذاهب لأتأمل البحر. الزبد الأبيض الذي

يشير إلى أطراف الموج ينبئني بأكثر من كل تصريحات القادة، العلم، الوطن، الجريدة، الإذاعة، والتلفزيون. أنا ذاهب لأتأمل البحر، وليس من يقول لي شيئاً غير الحقيقة. مطر يسقط على الماء، ولا حاجة بي إلى البكاء. البحر دموعي.

«أنا ذاهب لأتأمل البحر. سأجلس على الرمال مرتدياً معطفاً كبيراً، ولا تترحموا علي. يكفيني ترحمي على نفسي. أما أنتم، فتستطيعون المجيء والجلوس إلى جانبي. هناك متسع للجميع على شاطئ البحر. ولكن لا تذكروا لي من مات ومن عاش، ومن غلب ومن خسر ومن صدق ومن المذنب. هذا لا يهمني بعد. وما يهمني هو أن تصدقوني هذه المرة، لأنني لم أكن أقول الصدق دائماً. وهذه المرة أقول الحقيقة: أنا ذاهب لأتأمل البحر. ولست في حاجة إلى ما ليس بحراً.

«أنا حي. لكن الذي مات فيَّ لن تعيدوه إليَّ أبداً.. أنا حي وميت في آن. وفي فمي طعم زبل الخيل المالح. وكل أصدقائي تقريباً قتلوا أو جرحوا. ولاشيء يهمني أقل مما إذا كنا انتصرنا أو خسرنا. أنا لا أريد أن أسمع النتائج. حياتي ليست كرة قدم. والآن أنا ذاهب لأتأمل البحر.. أنا حي، ولكن الذي مات فيَّ لن تستطيعوا إعادته إلى الأبد».[2]

ما الذي مات في هذا الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين وعاصر أربع حروب؟

إن الذي مات فيه هو الذي عاش في الشاب العربي الذي لم يبلغ الثلاثين وتلقى ثلاث هزائم.

إن هذين الشابين، في ذهابهما إلى المعركة، كانا يفترقان في لحظة المواجهة. مهما تكن نتائجها: كان الصهيوني يندفع نحو الماضي. في أوج انتصاره كان يندفع نحو الماضي.

وكان العربي يسير نحو المستقبل. في قاع هزيمته كان يصعد إلى المستقبل.

كان الصهيوني، المدجج بالنصر والسلاح، يندمج بالانتحار وهو لا يدري. وكان العربي، المقهور حتى العظم، يعيد صياغة ذاته وهو يدري.

في الحرب، التي أرادها الصهيوني التحدي الجوهري لجدارة أحد الطرفين، قامر بكل شيء لأن أي موت يلحقه فيها هو موت كلي. والموت العربي لا يكون إلا جزئياً. ومن هنا لم يكن العربي مقامراً.
في أية حرب من هذا النوع يكسب العربي ذاته ويحيي الأطراف الميتة فيه. وكانت الحرب الأخيرة برهاناً على أن التحدي الوحيد الذي حددته

الصهيونية لنفسها وللعرب كان قبراً لها. وأن أهم ما فعلته هذه الحرب هو أنها قتلت حرب حزيران، مرة واحدة، في التكوين الإسرائيلي وفي التكوين العربي على السواء. وأن التقاء هذا الفارق عند لحظة واحدة هو افتراقه التاريخي الحاد على مستوى الحاضر والمستقبل معاً.

كانت حرب حزيران هي الضحية الأولى لحرب تشرين. لقد فجع الإسرائيليون بسقوط حزيران. وانعتق العرب بزوال كابوسه.

هذا ما مات في نفسية الشاب الإسرائيلي.

وهذا ما عاش في نفسية الشاب العربي.

الآن، يذهب الإسرائيلي إلى البحرليسأل هذه الأسئلة التي تأخر كثيراً في طرحها:

«أنَّ عليك أن تذهب إلى الحكومة وإلى القادة وإلى الكنيست، لتشير إليهم باصبعك: كذبتم عليّ! إننا نسقط فقط بين كراسيكم. نسقط بين كراسيكم.

«الأمن كان العجل الذهبي. كلهم قالوا لا داعي للقلق، لأن عندنا جيشاً قوياً ومليون فانتوم. تكلموا عن أشياء كثيرة محررة (المناطق المحتلة) لا يمكن إرجاعها.

«بعد حرب الأيام الستة بدأت كبرى حفلات العالم. شعب إسرائيل لم يكن قط ملتفاً هكذا حول «الأنا». الجنرالات الذين كانوا، ذات مرة، يجوبون الحقول وهم يرتدون البنطلونات القصيرة بأرجلهم المغطاة بالشعر، بدأوا يدخنون السيجار ويقيمون حفلات السلام إلى ساعات الفجر. والجنود – الخدم يرتبون لهم الموائد. وإذا اندلعت الحرب مرة ثانية؟ كانوا يقولون: سنكسر عظامهم. سنقضي عليهم.

«الأعمال مزدهرة. الصناعة والبناء ينموان بصورة عجيبة. مقاولون أغنياء يشترون أرضاً للبناء في أمكنة سقط فيها شباب أمس. يشترون القطعة التي سقط فيها أعز أصدقائي بعشرين الفاً. ووحدهم الجنود الذين عادوا إلى بيوتهم لم يكن لهم بيت، لأن أسعار الشقق ارتفعت إلى درجة أن سماسرة الحرب فقط هم الذين يستطيعون اقتناءها. وما كنت أعلم أننا حاربنا من أجل المقاولين. افتتحوا الكثير من المطاعم الفاخرة، يلتهم فيها موظفو الحكومة وجنرالات الجيش أطايب البحر المتوسط. والدولة، اي أنا وأنت ندفع الحساب كله.

«يقولون لك، بسهولة، كلمات لا يستطيعون تفسيرها. وعليك أن تقاتل من أجلها، ربما تموت من أجل شيء لا تفهمه أبداً.

«أصدقائي يرقدون الآن في المستشفى، من دون أيدٍ وأرجل. وهناك من فقد عقله. هل هذا هو السلام الذي وعدتموهم به.

«أنا ابن ست وعشرين سنة. لي ولدان. وليس عندي بيت. الأمن والسلام شيئان رائعان أكيداً. لكن حياتي أهم بالنسبة لي من كلامكم. وعندما أقاتل أريد أن أعرف بالضبط من أجل ماذا أقاتل. فإن كان السلام، فأي سلام بالضبط؟ هل هو سلام الاشهر الثلاثة؟ حتى يُجند إبني في الجيش ويحارب من أجل السلام ذاته. ان سلامي وأمني هما أن أعيش أكثر قدر الامكان».

لقد ماتت أشياء كثيرة في هذا الشاب (ابن شقيقة موشيه ديان). كان لا بد من موتها لكي يصبح قادراً على إحياء مثل هذه الأسئلة، ولكي يصبح قادراً على التفكير والاحتجاج على الذين يربونه للموت من أجل مقاعدهم «هذه هي موهبتهم الأساسية: احتلال الكراسي. هل هذا فريق اللصوص؟ وأية علاقة لهم بي؟ إن أصغرهم سناً يمكن أن يكون جدتي. وهم لا يتكلمون لغتي، ولا يهمهم ما يهمني». هل تجر هذه الأسئلة من الشاب الإسرائيلي الغاضب على قادته تساؤلاً منا حول اندلاع صراع الأجيال في المجتمع الإسرائيلي الذي يتكلم فيه الجيل القديم لغة لا يفهمها الجيل الجديد؟ ربما.

لقد سقطت الاجابات الصهيونية التقليدية التي قدمها الجيل القديم عن الأسئلة المصيرية فيما يتعلق بالصراع العربي – الإسرائيلي المزمن. «لماذا لا تتكلمون معهم أو تعملون شيئاً ما؟ دعك من هذا. إنك لا تفهم أنهم عرب وأن لهم عقلية اخرى. ونحن. أليست لنا عقلية؟ اغلق فاك ونم مع البندقية». هذا هو الجواب الجاهز الذي يُقمع به كل تساؤل، عندما كانت البندقية تقتل العربي وتؤمن النصر الدائم للإسرائيلي. فبماذا يجيبون الآن بعدما صارت البندقية تقتل الإسرائيلي أيضاً؟.

إن شرخاً كبيراً حدث في بنية القناعات الإسرائيلية. وحين استقالت غولده مئير لم تكن تودع حكومتها بقدر ما كانت تودع عقلية جيلها التي قادت الإسرائيليين إلى أربع حروب في ربع قرن. فهل يقتنع الإسرائيليون بفشل هذه العقلية؟ وهل يستبدلونها بعقلية أخرى أم يحتاجون إلى حرب خامسة ليقتنعوا ببديهيات. والجيل الشاب حين يوصل ممثليه إلى السلطة، هل يكرر الأخطاء المميتة التي ارتكبها الجيل الذي يشكوه الآن؟ وكيف يواجه المأزق التاريخي؟ أسئلة.. أسئلة.. أسئلة، تختصر بسؤال واحد: ماذا استفاد الإسرائيلي العادي من إقامة هذه الدولة؟ ماذا أعطته

غير الحروب!.

لقد مات شيء كثير في القلب الإسرائيلي الشاب.. مات شيء كثير.. «رأيت شباباً يموتون، ولا أحد منهم صرخ قبل أن يسقط.

«ما أجمل الموت في سبيل الوطن» أو «يعيش السلام والأمن». لقد بكوا كالأطفال، دون أن يعرفوا إذا ما كانوا حققوا السلام والأمن». لقد وقع الخلاف بينهم وبين «الوطن» الذي سرقوه من شعب آخر. وحين يموت المرء، دون أن يعرف لماذا يموت، أو حين يعرف أنه يموت من أجل سرقة، فإن موته يكون بلا مجد وبلا شهية. هذا ما مات فيهم. وهذا ما ازدهر في نفسية الشاب الفلسطيني العربي الذي يذهب إلى الموت كما يذهب إلى الزفاف. وهذا هو الفارق الشاسع بين موتين.

الإسرائيلي يقول: «لا أحد منا صرخ، قبل أن يسقط: ما أجمل الموت في سبيل الوطن».

والفلسطيني يكتب قبل ذهابه إلى الموت: «ما أجمل طعم الموت عندما يمتزج بالأرض. نموت اليوم ليس هرباً من الحياة وليس يأساً. الموت في سبيل الهدف.. الموت رائع. إنني أشعر بثقل المخيمات ينزاح عن صدري، ووحول الأزقة تتحول إلى طرق واسعة معبدة في وجه الشمس».[3]

لقد مات «الوطن» فيهم، لأنه وطن خطيئة. وعاش فينا لأنه وطننا. أكان لا بد من حروب ليفهموا العلاقة بين الحزن والبحر. وليروا المسافة بين الحرب والبحر، أكان لا بد من حروب كثيرة لكي يعرفوا أنهم يموتون لتحيا كراسي الجنرالات، وتزداد أرباح المقاولين، ويبقوا هم بعيداً عن المائدة.. وعن الاحتفال.. وعن السلام.. وعن العرب.

أكان لا بد من حروب كثيرة؟

لا. كان لا بد من نصر عربي، لكي يذهبوا إلى البحر للتأمل والتفكير. وما زال البحر أزرق. كبيراً وأزرق. عربياً.. واأزرق.

1. من كتاب «يوميات الحزن العادي» للكاتب.
2. من كتاب «التقصير» لكتّاب إسرائيليين.
3. من رسالة فدائي قبل استشهاده.

الشهداء يطلبون دمهم
إذا ضاع في النفط

- متى عدتَ من الحرب؟

• لم أذهب اليها. هي التي جاءت إليّ وعادت.

- وماذا فعلت بها؟

• انخرطت. وكنت أستدرج وعدين: أن أختبر معدني. وأن أصير حراً.

- وكانت خديعة؟

• كلا. الحرب كالحصان لا تخدع.

- وماذا كانت النتيجة؟

• فاز معدني الذي صرت أعرف الآن أنه كنز. وظلت حريتي ناقصة.

- وماذا تفعل الآن، تنتظر؟

• أكتب شعراً.. وأتحرر.

* * *

في الوقت الذي كان فيه «سرحان» يفتتح محاولة حياة جديدة، بالشعر، داخل زنزانة العمر، كان كثيرون من الكُتّاب في الخارج يطرحون على مواهبهم هذا السؤال:

نكتب.. أم لا نكتب؟

كانت موجة إعلان الالحاد الشائعة بكثير من القناعات والقيم تصل إلى حد المطالبة بإعلان العصيان الأدبي. ضد من؟ لا أحد يجرؤ على القول. وصلت عدوى الشك إلى جدوى الكتابة. وبطريقة تفتقر إلى القليل من الحياء، أخذوا يتساءلون:

أيهما أجدى، الرصاصة أم الكلمة؟

وكان أصحاب السؤال لا يعرفون أن إعلان هذه المبارزة المفتعلة لا ينضح بفقر القضية فقط، وإنما يجرد كلا من الرصاصة والكلمة من مسؤوليتهما المشتركة وتآلفهما في القضية الواحدة.

أن يسأل هذا السؤال معناه أن الكُتّاب أو الكاتبين يكشفون

عن مدى ما يكنونه من احتقار خفي لطبيعتهم، ومعناه أنهم يعلنون الاعتراف المهذب بممارسة الكذب على الكلمة والرصاصة معا. ما أبعدهم عن الحرية المتحركة. يجب أن تنتهي مطاردة الغزال السابح في بياض الغموض بمقتله حتى يأخذوا موقفاً.

وأن تسأل نفسك: أكتب أم لا أكتب؟ يستدعي أن توجّه إلى النفس ذاتها سؤالا مشابها: أتنفس أم لا أتنفس؟

بدلاً من ذلك، ينبغي أن يُطرح سؤال أكثر جدوى: أكذب أم لا أكذب؟ أقتحم أم أتراجع؟ لماذا يهربون من مواجهة المسألة على هذا النحو. وكيف توجه الرصاصة؟ إلى أي هدف، وإلى أي تناقض؟ سؤال أجدى بكثير من الإجابة على سؤال لا ينبغي أن يطرح عن أيهما أجدى الرصاصة أم الكلمة.

إن من يتعامل مع صراع الموت والحياة بهذه الطريقة يعترف بأنه دفع كثيراً من الشباب، الذين صدقوا الكلمة، إلى الموت المجاني، لأنهم استجابوا إلى مزاج كاتب كان يمزح أو يتسلى. وهي خطيئة لا يُكفَّر عنها بالإعلان عن إفلاس الكلمة، بل بتعميق مسؤوليتها.

* * *

وقف اطلاق النار – وقف الكتابة. الا تكتبون إلا في الحروب؟ كان «سرحان» يسألنا، ويسجل ملاحظة: الكتابة هي النار الدائمة، وهي لا تخمد.

لم يقطع حوارنا السجان الذي كان يرابط عند النافذة، ويسد وجه الشجرة الوحيدة.

- هل ألفت الزنزانة يا «سرحان»؟

• كلا. ولكنها أوسع مما تتصورون. فهي تقول لي ان ثمة حرية في العالم. ومن هنا، فهي الجانب الحر من العبودية، لأن زنزانتي خارجي. وأنتم، تحملون زنزانتكم في قلوبكم حين تسرحون في الشوارع والورق.

- ماذا تعني؟

• أعني أن حريتكم هي اختيار الجانب العبودي من الحرية. هل نقتحم المقارنة؟

- بيننا وبينك؟

• أقصد بين حالتين، بين رؤيتين. اني أراكم لأنكم لا ترونني. وإني أعرف ماذا أريد. وأنتم ماذا تريدون؟

- حدثنا عن الحرب، هل فعلت شيئاً؟

• قلت لكم إنها جاءت إليّ وعادت، تماماً مثلكم، ولم أذهب اليها. متى تعودون؟

أقصد.. إلى الكتابة متى تعودون؟

- حين نعرف ما يجري.

• متى تعرفون؟ متى تتوقعون أن تعرفوا؟

- الدنيا آخر ليل. وعما قليل، يظهر خيط السلام من خيط الحرب.

• وهل أنتم خارج الليل. هل تتفرجون؟ ألا تمسكون طرفاً ورؤيا؟ لقد قادتني قصائدكم إلى حريتي المتجسدة بهذه الجدران، وكنت شديد الفرح والحيوية. والان تستفتون مادة تجاربكم، تأخذون منها الحكمة. يا للعار!

***

نعم. فجأة عثر كثيرون من الكتاب على أنفسهم خارج الليل. لقد راهنوا على رصاصة. حين انطلقت فاجأتهم بأنها شكّلت مفترق طرق محيراً. نكتب أم لا نكتب؟ عم نكتب؟ وماذا نكتب؟ اسئلة تنطوي على ما هو أخطر من بؤس الأدب. كانت القصائد تعاتب القذائف التي تأخرت. وكان الركود تربة خصبة لتسابق شعراء على إهانة الأمة. وحين اندلعت النار أصابت الهزيمة هذه النفسية، وحين خمدت النار ثانية عادت تلك النفسية ذاتها إلى البرهنة على صحة تدهورها. كم من شاعر راهن على عقم روح الأمة. كم من شاعر! وكم من شاعر راهن على اشتباك عسكري. كم من شاعر! وسنهدر كثيراً من الحبر والورق سدى ونحن نضع الحواجز الفولاذية، بين مرحلة ومرحلة. لانطلاق البارود شعراء، ولسكوت النار شعراء لحزيران شعر، ولتشرين شعر.

لماذا يموت أدب بكامله بعد معركة عسكرية واحدة؟ لأنه ليس أدباً، لأنه مخاطبة غرائز، لا التحام بحركة تاريخ وروح أمة وعلاقة بمستقبل. كيف نشهد الان شبه إجماع على أن أدب ما بعد هزيمة حزيران قد سقط؟ الأنه تهويمات مزاج، ام لأن معركة

عسكرية في تشرين عادت بنتائج أفضل؟ كلا السؤالين واحد، لأن معايير الأدب صارت تأتي من توقيت انطلاق رصاصة. وماذا لو حررنا الأرض المحتلة. ماذا لو حررنا فلسطين، هل ينتهي الادب العربي الحديث؟.

لعل أشد ما يحمله كثير من نتاج الأدب العربي بعد حزيران من أمراض هو أنه أدب تعليقات على الأخبار. إنه ينسخ ولا يخلق. يصور ولا يبدع. يطفو ولا يرسخ. يقوم على ظرف جغرافي لا ظرف تاريخي. يأتي من الذكريات لا من المستقبل. انه تعبير.. تعبير فقط عن ردود فعل آلية. وبالتقاطه اللحظة الشعرية يتعامل مع التناقض الحقيقي بسطحية سهلة. ولا يحاول إعادة ترميم الحلم العظيم. يستبدل الحلم بالكابوس. لم يعد للأدب وظيفة، ولكنه صار الوظيفة التي تعجز، بتعاملها مع الحدث، عن خلق قيمة إنسانية قادرة على البقاء. إنه كتابة شيئية.

***

- ولماذا تضعون خطاً فاصلاً ما بين حزيران وأيار، ثم تضعون خطاً فاصلاً ما بين حزيران وتشرين؟. ولماذا تحاكمون كل ما سبق؟ لماذا تعلنون براءة الخطأ؟

لم نرد على سؤال سرحان، فتابع: هل انتهت الأسباب التي أدت إلى الكارثة؟ هل انهار نظام القيم القديم؟ هل طهرت بُنية مجتمعاتنا؟ لماذا لا تعلنون الإلحاد بالخطأ الذي ما زال سائداً. انكم لم تعلنوا الكفر الا بأثمن ما في هذه الأمة: إنسانها وتاريخها؟ إن الذين يستحقون المحاكمة هم كلاب الحراسة الذين يعيدون ترميم نظام القيم القديم ذاته، والذين يجهدون في البرهنة على أن شيئاً لم يحدث. لم يحدث شيء. وإن حزيران كان طارئاً. هل خرج منا حزيران، وهل صار ورقة في روزنامة ننتزعها ونرميها في سلة المهملات. إن من مصادر سعادة الإنسان قدرته على النسيان. ولكن لماذا نكون سعداء إلى هذا الحد بتكريس الخطأ. والدم الغزير الغزير الذي سال لا يعيد الحياة إلى الشجر القديم الفاسد، ولكنه يخصب الأرض الجديدة.

- ولماذا فرحت بالحرب الأخيرة يا «سرحان»؟

- لأنها اختبرت أثمن ما في هذه الأمة، وأثبتت أنه صالح.

- الدم أم النفط؟

• المدافعون عن ضرورة نسيان حزيران وأصحاب حزيران ذاتهم هم الذين يشيعون الآن أن النفط بطل الحرب. لا، ليس النفط بطل الحرب. لا، ليس النفط بطل الحرب. الدم هو البطل.

- ولكننا خسرنا مزيداً من الأرض.

• وربحنا مزيداً من الإيمان بطاقة التحول فينا. صرنا نعرف أن العيب لا يأتي من هذه الطاقة الإنسانية. العيب فوق.. في السقف. لقد ازداد وضوح التناقض. والعيب في السقف.

هنا، قطع السجان الحوار. كان السجان مكلفاً بحراسة حزيران. وضع قامته الضخمة بيننا وبين صوت «سرحان». صار سرحان يشبه فارساً في زنزانة تشبه غابة.

وكنا على مقاعد الزوار القريبة من الشاطئ نشبه أسرى لا يعرفون من أسرهم. وكانت المسافة بين الشاطئ والسجن تضيق تضيق وتتحول إلى زنار حول الخاصرة، ثم إلى قيد حول الزندين.

وعاد إلينا صوت سرحان: ان تكفروا بالكتابة معناه أن الهزيمة كاملة، وأن الحرب نزهة للفرسان على شاشة بيضاء.

- حجر وقع من فوق ولم يرتطم بالأرض هذه هي حالتنا. لا هو نصر ولا هو هزيمة. الحجر لا يصعد إلى فوق. والأرض يحتلها الغزاة. فكيف نراه؟

• وضعوا لكم عيونهم. هذا صحيح. ولكن الفن يرى بشكل أفضل. الفن يخترق، لأن العيون في القلب. والشهداء يعلنون العصيان إذا استمر الخطأ. الشهداء يطالبون بدمهم إذا ضاع، من جديد، في النفط.

اذهبوا إلى فلسطين. ولكن لا تهربوا إلى فلسطين.

- ماذا تعني؟

• الذهاب إلى فلسطين ثورة وحلم أمة. والهروب إلى فلسطين تجريد وذريعة. فلسطين ليست جغرافياً فحسب. إنها عافية تاريخ. وحيوية ثورة، ومحالفة مستقبل. والهروب إلى فلسطين استعادة ذكريات وبكائيات عاطلة عن الفعل.

- ولكنها ابتعدت قليلاً؟

• لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً. وإذا كان الأمر كذلك فإن

هذا البعد يقربنا من الثورة أكثر، فتلد الحرب مولودها المنتظر، ويصير الفارق بين الخطأ والصواب أوسع.

آه، فلسطين! لا تكونين إلا ثورة. في الأمام وفي الوراء. في الحرب وفي السلام لا تكونين إلا ثورة.

الإنسان. الثورة. فلسطين.

وأطل «سرحان» من نافذة الزنزانة، ورآنا نختفي في الشاطئ، كأنه حرّ يودع أسرى عادوا إلى ثلاث كلمات هي مفتاح الافق العربي كله.

قال أحدنا: أن نكتب معناه إننا قادمون لتونا إلى الحياة. معناه أن نتجدد، معناه أن نفرح بالقدرة على دهشة افتتاح العالم. معناه أن نحيا، معناه أن نثور.

ولم يكن سرحان سجيناً كما تصورنا. كان يطل على الحرية.

(صلوات ليلة العام الجديد)

لأنبيائها وشعبها

- في أوج الموت تعطينا ميلاداً، فيكون الفرح أكثر من رمز وخلاصة. يكون بلاداً.

وفي أوج الحروب تعطينا سلاماً، فيكون الأمل أكثر من حافز ومعنى. يكون بلاداً.

وفي أوج العذاب تعطينا نشوة، فيكون الرجاء أكثر من صلاة.

يكون بلاداً.

«هي» لا تكون ذاتها إلا خارج ذاتها.

كأنها خصصت للنبوءة. وكأن النبوءة لا ترتدي غيرها.

«هي» العالم.

والعالم ليس «هي».

تخرج منها الشرارة لتضيء خارجها. وتبقى «هي»، لا تبقى إلا في العتمة.

إنها تعيسة كالنار والأنبياء. سعيدة مثل لاشيء.

لم يخرج يسوع من أحد مذاودها ليحررها. خرج منها لتحرير العالم.

ولم يُحدِّد ميعاد محمد الوحيد لمقابلة **الله** إلا فيها، لتحرير العالم أيضاً.

واليوم، يركض أبناؤها خلف دمائهم في اتجاهها فيجدون أنفسهم خارجها.

«هي» لا تكون ذاتها إلا خارج ذاتها.

وهم لا يجدون ذواتهم إلا داخلها.

وإن قابلة الحرية والعدالة والسلام، في أشرف دور في التاريخ، لا تعرف الحرية ولا العدالة ولا السلام. لقد صدّرتها إلى العالم. ولم تأخذ إلا العبودية والظلم والحروب.

يا فلسطين! إلى متى تدفعين من أجل ولادة متجددة، وأنت خارج الولادة؟. إلى متى تلدين لغيرك؟. ألانَّ العالم ينسى ويذكرك اليوم، ألانَّ العالم يحتاج!.

هذا اليوم يكفيها. يكفيها هذا اليوم الواحد لأنه يعادل تاريخ الأرض ماذا يبقى من التكوين غير هذا المعنى، ماذا يبقى؟.

اليوم، ينكسر العالم المدجج أمام غصن زيتون.

اليوم، ينحني العالم الطاغوت أمام كلمات دعوة.

اليوم، يقف العالم الغني فقيراً فقيراً أمام عبارة حب.

وغداً، يمضي وينسى.

ونحن، نبقى كما كنا: نمتشق هذا اليوم،

هذا اليوم الأبدي بندقية وبنفسجة، ونواصل المحاولة: أن تجد فلسطين ذاتها داخل ذاتها. لتكون أرض الحرية حرة. ولتحظى أرض العدالة بالعدل. ولتمتع أرض السلام بالسلام..

نمتشق هذا اليوم ليكون نطفة السنة كلها، نطفة الدهر كله: بندقية وبنفسجة، لكي لا تبقى فلسطين كتاب المعاني العظيمة فقط. ولتصبح تجسيد هذه المعاني. وليكون التاريخ أكثر من وقفة احتفال. ليكون تواصلاً وديمومة. ولتصير الشجرة جسما يضاف إلى الفكرة. لتصير الشجرة شجرة.

نمتشق هذا اليوم بندقية وبنفسجة، لكي لا يكون جمال فلسطين معذباً لأبنائها ومبهجاً لسياحها، ليصير دهشة الجميع.

وكي لا تبقى الأرض نقيض الحلم.

ليتزوج الحلم الأرض.

لتصير فلسطين وطن الناس والمعاني، لا رمزاً ملهماً بلا ناس.

نمتشق هذا اليوم لكي تتسع المسافة بين ظهر المسيح وصدر صليبه، لتصير المسامير قناطر. من هناك نعبر.. من المسافة الضيقة إلى الأرض الرحبة. ونبني على صخرة محمد علم الغضب.. غضب الأم على سارقي أطفالها المعذبين.

نمتشق هذا اليوم، بندقية وبنفسجة، لتكون الأم عظيمة بحرية أبنائها لا بتشردهم.

وتكون فلسطين براءة العالم وهي حرة.

وطفولة العالم وهي حرة.

وبكارة العالم وهي حرة.

لتكون فلسطين وطن أنبيائها وشعبها معاً.

الميلاد وحارس الوهم

- هذا الحارس الذي يشهر سلاحه في وجه المهد، الليلة، بماذا يفكر!

وهؤلاء الجنود الغزاة المنتشرون على آثار خطى المسيح، طفلاً وشاباً ونوراً، عَمَّ يبحثون!

من أين جاءوا؟ وأهم من ذلك: إلى أين هم ذاهبون؟.

دعوهم واقفين، لان في وقفتهم عموداً من الملح.

ماذا تعلموا ليذوقوا نكهة التوبة؟

لا شيء إلا قدرة الرصاصة على قتل المدى والكلمات. لم يقتلوا إلا مداهم. وما زالوا واقفين.

وتكون الأرض الحزينة، حتى الفرح، كما هي.

ليس بوسع غزاة التاريخ كلهم أن يمنعوا هذا الميلاد.

- كم مرة ولد هذا الطفل الفلسطيني، ألا يكفي؟
- ملايين المرات. في كل لحظة يولد.
- ولماذا يشعل العالم كل هذه الشموع؟
- إن نوره يأتي إلى الشموع ويشعلها. يأتي وحده.
- من أين هذه الشموع؟
- الدمعة الفلسطينية لا تضيع.
- وما شأن العالم؟
- إنه ابن العالم.
- هل كان فلسطينياً وعالمياً إلى هذا الحد؟
- كان فلسطينياً وعالمياً إلى درجة الصلب.

تدق الأجراس في لحظة واحدة. يبدأ جرس واحد في بيت لحم، فتصير أصوات الدنيا متشابهة وواحدة. لقد ولد الطفل الفلسطيني من جديد. والجنود يشهرون سلاحهم في وجه الصوت والصدى. ليس ضد فلسطين وحدها. ضد العالم بأسره. وإن هذا الحارس، إذ يتربص بلحظة الميلاد، يتربص بضمير

الإنسانية كلها.

قولوا له أن نهر الأردن لا يرتد.

وليست ثروة فلسطين برتقالاً وضحايا. هي أغنى من ذلك. إنها صميم العالم والمعاني التي هذبت البشرية.

حدِّق في الماء والطين: إنها رحم الحرية والعدل. وإن من يعنيه التعرف على جذور الإنسان فيه ليس بقادر على الراحة ما دام المصير الفلسطيني الحاضر بعيداً عن الهدايا والنعم التي قدمتها فلسطين إلى العالم.

هذه الأرض الرائدة ليست محطة لتصدير القيم والأنبياء فحسب. ان الكفاح من أجل أن يكون مصيرها امتداداً لعطائها هو مهمة تتعدّى مسؤولية الفلسطينيين وحدهم إلى دفع الإنسانية نحو اختبار جدارتها بما تتمتع به من قيم.

حدِّق في الماء والطين والحارس الذي يصر على احتلال خطى المسيح من بيت لحم إلى القدس الليلة. حدِّق تفهم جوهر الصراع. إن الحارس الصهيوني، يحرس محاولة إعادة التاريخ إلى الاثم والعتمة التلمودية. ويحاول فصل فلسطين عن العالم. أي: يحاول تجريد التكوين الإنساني الشامل من مقوماته الفلسطينية. أنه يسعى إلى إجهاض الحاجة إلى تجدد ميلاد الجوهر الإنساني في الإنسان، ليكون الشر مناخ شرعيته الحرة حين تكف هذه المعاني عن التوالد.

ونحن بحاجة إلى هذا التجذر، فهو يجدد إدراك العالم لإقامتنا في صلب منجزاته الروحية والإنسانية.

المسيح نور فلسطيني إلى العالم. يولد ملايين المرات في كل لحظة.

وفي كل لحظة تذهب فلسطين إلى قضيتها الشمولية. تذهب إلى عالميتها وأبعادها التي لا حدود لها لتطالب بمكان أبنائها المعذبين على الأرض.

وحارس الوهم يجد نفسه بعيداً.. بعيداً عن الإنسان لأنه لم يأخذ من التوراة الا السيف.

اعطوهم وقتاً... ليكبروا

- هند تخربش على الجيتاره.

وسيرين تلعب مع الفراشة.

وأعود، يا أمي، إليك الليلة.

لماذا لم ننس أن نكبر وأن نسافر؟

لماذا لم تضربيني على يدي وتمنعيني من هذا؟

لم أجد في المطارات فراشة واحدة ترضى أن تلعب معي مثل سيرين.

ولم أجد في المدن جدراناً أخربش عليها مثل هند.

وها هي هند تخربش على الجيتارة.

إنها تتسلق أوتارها وتضرب فيكون العيد. كل ضربة عيد، وهي تتعلم المشي، وهي أقصر من الجيتارة.

لا أعرف. ولا أعرف متى تقولين لي:

- لم تكوني أمي بقدر ما كنت ابنك؟

- أم لم أكن ابنك بقدر ما كنت أمي؟

إنها تمطر.. تمطر، فتأتون إلى البيت وتنتظرون.

ولا يعود الولد الذي لا يكبر إلا خارج البيت. في البيت يكون الجميع أطفالا.

لم أجد جيتارة أخربش عليها مثل هند.

لأني خارج البيت.

لأني خارج الطفولة.

أين أقضي ليلة رأس السنة؟ تسألين الآن.

تسألين بكثرة: أين يقضي الليلة؟

أقضيها في الليالي السابقة. أفتح المفكرة وأقرأ رقم هاتف البيت. أغنيه. أبكيه. أشربه ثم أعطيه للطفلة هند لكي تخربشه على الجيتارة.

هي الوحيدة القادرة على أن تعيدني إليكم. القادرة على إرجاعي إلى البيت.. إلى الطفولة.

- هل يصير الرقم... رقم البيت تعويذة؟

الليلة نعم. إذا ضاع رقم أحس أن شباكا طار وأن سقفا وقع.

وهند تخربش على الجيتاره، فتلم شتاتي.

يا أمي!

لماذا لم تعطيني وقتا طويلا لأكبر؟

لماذا لم تحققي أمنية ذلك الرجل الحكيم الذي قال للأطفال:

أتمنى أن تأخذوا وقتا طويلا لكي تكبروا!.

إنني اشرب نخبك، وأقبل يدك. وأقول للطفلة هند: خربشي على الجيتاره. خربشي يا هند. إن فراشات كثيرة تطير من الأوتار. وألعب معها مثل سيرين.

حوار بين مسافرين
لقتل السأم المشترك

- من خطف بداية السطر الجديد؟

• الذي حذف النقطة من نهاية السطر السابق.

- لم تكن نهاية؟

• ولم تكن بداية كاملة. كانت مقدمات لها.

- كنت أقضم تفاحة. وكان لعابهم يسيل على الوقت.

• وقيل لنا: نذهب معهم إلى الوقت. ندفع زمانينا إلى حلبة الصراع. ونتفرج. لا يبقى إلا الزمن الصالح.

- وكانوا يدربون الوقت. وكادت تفاحتي تفسد. وحدث ما حدث: حين ضاعت النقطة من السطر السابق، لم تعد بداية السطر الجديد حقيقية.

• وما العمل؟

- نبحث عن النقطة الضائعة.

• أين؟

- في الحرب القادمة.

• صارت ذكرى. الحرب القادمة ذكرى، لأن الذين سرقوا النقط الموضوعة في آخر السطور الماضية قد التقوا مع أعداء بدايات السطور الجديدة.

- والشارع؟

• مسدود بالمذيعين، ومباريات كرة القدم، والشعراء الذين يكتبون بفائض النفط.

- وماذا تنتظر؟

• طلاق الألوان المتشابكة، والخارطة التي تضع الفاصلة الأخيرة بين الوطن والغزو.

- ولكن الانسحاب متبادل.

• والهزيمة متبادلة.

- وماذا يقولون؟

• ان أظافر العدو قد قُلّمت. بعد الان لن تمتد إلى العواصم. وهذا هو المهم: العواصم امنة من الخارج، فالأمن مستتب في الداخل.

- وأين ثمار الدم الذي سال من الجنود؟ أين وعود الموت بوجه آخر؟

• هدايا تذكارية لعائلات الشهداء. ميداليات. وبضائع مستوردة للناجحين.

- من هم؟

• الذين يقررون مواعيد الحروب ومواعيد السلام، والذين يصفقون، والذين يسمون الأشياء بغير أسمائها.

- والذين خاضوا الحروب؟

• يلتزمون بالطاعة التي ينص عليها الدستور الذي استفتى عليه الشعب ووافق. يعودون إلى الكدح وبناء الوطن من جديد. ويدعون إلى الحرب وقت الحاجة.

- لمن يبنون هذا الوطن.. لمن؟

• كل شيء قطاع خاص. حتى الوطن.. مزرعة.

- والناس؟ اليس لهم من حق الا واجب الموت في الحرب، والذل في السلم؟

• يذيع التلفزيون حلقات مسلسلة عن مملكة النحل. الحكمة الالهية والطبيعة تريدان هذا التصنيف. ناس يخلقون عبيدا بالغريزة، وناس يخلقون ملوكا. ويقول العالم الذي قدم هذا البرنامج التلفزيوني إن علينا أن نأخذ العبرة من الطبيعة. إنها حكمة الهية.

- ولكنها كانت مجيدة. الحرب كانت مجيدة، وانتهت. هل نعيش في حرب دائمة؟

• ولكن هذا ليس سلاما. عبر الزجاج يكون الموت بطيئا وبلا لذة. والصاعقة تقتل بشكل أجمل.

- رغم هذا. كانت حربا.

• كانت حربا حاربنا فيها بشجاعة ومتنا برضا.

- وانتهت.

• لم تنته. لقد سُرِّحث من الخدمة. غضبوا عليها فاعتقلوها. ويقال أنها ستقدم للمحاكمة بتهمة التمادي وخلق الأحلام الكبيرة. لقد جعلت الناس تفرح أكثر مما يجب.

- وهل هي تهمة. هذا هو شرفها. كان لا يمكن لها أن تخدمنا إلا بهذا الاستقطاب. فماذا حدث؟

• يقولون أنها انتهت مهمتها. فلماذا تجرؤ على خلق جاذبية تعد بتجاوز الحدود المقررة؟ ولماذا تخلق فرحا أكبر من القرار. انها مؤامرة.

- أي قرار؟

• القرار الذي أصدره الناطق الرسمي بلسان الفرح.

- من هو؟

• ليس له اسم. قد يكون طيفا، وقد يكون شبحا، وقد يكون كائنا سريا.

- وما هو الخطر الناتج عن فرح الناس بحرب وعدتهم بالحرية والتحرير؟

• لأن انتشار هذا الفرح يعني وجود خلاف في الرأي وانقسام. ولأن مسايرة مطالب هذا الفرح قد تتخطى الحدود، فيغضب العدو، ويصاب بحرج شديد.

- لا أفهم.

• أنا أيضا لا أفهم. ولكن الشائعات تقول إن التحام الناس بفرح الحرب يؤدي إلى الضغط من أجل التحرير. الأمر الذي يجعل العدو انتحاريا، ولا تتاح له – أمام مواطنيه المتصلبين – فرصة الذهاب إلى المصالحة. ويقال أيضا أن في صفوف العدو أجنحة متصارعة، وإذا تسببنا في ايذاء الجناح الحاكم أكثر مما ينبغي، فإن الأمر يؤدي إلى تقوية الجناح المعارض ووصوله إلى السلطة. وهكذا نفقد فرصة السلام التاريخية.

- لا أصدق. ولكن هل صحيح أن الجغرافيا لم تعد مهمة في هذا العصر؟ هل سمعت شيئا عن هذا الامر؟

• هكذا تكتب الصحف. ولكني سألت: إذا لم تعد الجغرافيا مهمة، فلماذا لا ينطبق غياب أهميتها على العدو؟ لماذا تكون مهمة له إلى حد الموت؟ فقالوا لي أنني ضيق الافق ومحدود في المكان. قالوا أن العدو أسير في الجغرافيا، ونحن طلقاء في التاريخ.

- والعدو يعطي الجغرافيا بعدا تاريخيا!

• قالوا لي أن هذه الامور جزئيات وتفاصيل سخيفة. فأغمضت عيني وسرحت. تبتعد المدينة بقدر ما تبتعد الحرب. هذه هى المشكلة، وهذه هى المعادلة. ليس للحرب جمال، ولكن

دفعها إلى الغياب حضور الخطيئة. عندما تتسع الزنزانة يصير الجسم فضفاضا. هذه هي المشكلة.

- مرت قرب دارنا قبل الشتاء. وكانوا يحبونها، لأن جمال الوطن يختبئ في بشاعتها. وكانت الطائرات ألعاب الاطفال. فتحت النافذة أمس، فلم أجد حرباً ولم أجد سلماً، ولم أجد مظاهرة.

وماذا أخذ العرب؟

• لا شيء. صه! تكلم بصوت منخفض. دخلت الطائرة الأجواء الإقليمية. وقد يسمعون كلامنا فيتهموننا بالحزن.

- لا أفهم. كان الفرح تهمة. والآن، صار الحزن هو التهمة؟.

• لكل حال حالة. في هذه الأيام قرروا تعميم الفرح ومنع الحزن.

- لماذا؟

• الحزن في هذه الأيام يعتبر احتجاجا على تجميد الصراع مع العدو. يعتبر اعتراضا على السلم الغامض. ثم.. لا يجوز أن نستقبل العودة الأمريكية بمظاهر الحزن.

- العودة الأمريكية.

• نعم. يقولون أن أمريكا تغيرت. وأن وزير خارجيتها قاد ثورة تحت شعار «وحدة عربية. قومية عربية. اشتراكية عربية» داخل أمريكا. ألا تقرأ الصحف العربية؟ لقد تخلت أمريكا عن كل عناصر تكوينها السابق. وأوقفت كل المساعدات المالية والعسكرية للعدو، بعدما نجحنا في اقناعها – المسألة مسألة اقناع – بأن العرب أكثر وفاء لأصدقائهم من اليهود الجحودين!. كانت أمريكا مضللة. واتضح أنها ساذجة وطيبة القلب. وبالإقناع فهمت الحقيقة، خاصة بعدما رأى وزير خارجيتها بنفسه براعة التطبيق الاشتراكي عندنا، فأعجب به وطلب أن يكون عضو شرف في أحد أحزابنا الاشتراكية الكثيرة.

- والأسلحة التلفزيونية التي استخدمتها أمريكا أيام الحرب وكانت مسؤولة عن اختراق إحدى جبهاتها، ماذا حصل بها؟

• حدث ذلك بمؤامرة من خصوم صديقنا الوزير. ولكنه تغلب عليهم. ووعدنا بدفع التعويض. لكل شيء حساب: سيرسل

الينا أطنانا من التشيكليتس، وسجائر كينت، وثلاجات، وآلات فليبرز التكنولوجية، ومجلات مصورة، وأفلاما حديثة.

- متى حدث هذا التغيير؟

• عندما كنا نسير في جنازات أقاربنا، ولم نكن نفتح أجهزة الراديو حدادا على الشهداء.

- توقيت ذكي؟

• طبعا. لئلا ننتبه ونشعر بالعار. في أيام الحداد لا ينتبه المرء إلى العار.

- صه! لقد انتهت مدة الحداد المقررة، وأي تمديد يعتبر تآمرا.

• وماذا يقول الشارع؟

- ذهول وانتظار. ومن لا يعترف بحدوث الثورة في أمريكا يعاقب.

• هل يجتهد أحد في معرفة صحة النبأ؟

- لا. الدستور يمنع ذلك. والحرب الماضية والحرب القادمة تمنحان صلاحيات المنع.

• قلت أن الحرب القادمة صارت ذكرى. هذا صحيح. ولكنها تكون حاجة لمنع الاجتهاد. لا صوت يعلو..

- وحين تندلع يخمدونها.

• الشعب يعطي الدم، والحاكم يأخذ الزينة. يحتاج إلى دم الشعب من أجل الطاعة.

- نريد أن نعرف: انتصرنا ام هزمنا؟ منذ تشرين والناس تسأل هذا السؤال ولا أحد يجيب. هل كانت لعبة؟

• الحرب، حين تقع، لا تكون لعبة. ولكن من الممكن التلاعب بالنتائج.

- من انتصر؟

• الإنسان. انتصرت الإرادة، وهزمت السياسة التي كانت بحاجة إلى هذا النصر لتكون قوية في ذهابها إلى الهزيمة.

- هل تحولت جثث ضحايانا إلى قناطر؟

• نعم. وصارت الدولة اقوى. وارتفع سعر النفط.

- وانتهى الصراع؟

• لا. هنالك عدو جديد لا ينتهي الصراع الا بالقضاء عليه.

- أي عدو؟

• روح تشرين.

- أين هي؟

• فينا. الا تلاحظ أنك تتكلم بطريقة جديدة، ألا تشعر بأنك قادر على التساؤل. ألا تشعر بأنك قادر على الفعل لو أتيحت لك الفرصة؟

- ولماذا يحاربون روح تشرين؟

• لأنها حصيلة اختبار الإرادة. إنها رفع الستار الوهمي عن الطاقة الحقيقية. قادرون.. قادرون.. قادرون. وقد تغلبت روح تشرين فينا على روح حزيران. ولمسنا يد القدرة والخوض. وحين أوشكنا على الالتحام اوقفونا.

وهل تتغلب روح حزيران من جديد؟

• لا أتصور. لا يجوز. عرفنا أن العيب ليس في المعدن. ليس في التكوين. العيب في الصمّام.

- أهذا ما أعطته الحرب؟

• عرفت الطاقة أنها طاقة. وعرفنا أننا قادرون بالحرية.

- وأين الحرية؟

• في قبضة الحاكم، كما الأرض في قبضة العدو.

- وأين الطاقة؟

• فينا. وتصير المعادلة واضحة. ويضطر اللون الرمادي إلى الاستقالة.

- وإلى أين نحن ذاهبون؟

• إلى الوطن.

- أين صارت حدوده؟ متى يعلنون نشرة الطقس لنعرف حدود وطن اليوم قبل الخروج.

• حدوده دائما فينا. ولن نجده خارجنا.

- عثرنا على النقطة في آخر السطر السابق.

• وعلى أول كلمة في السطر الجديد.

وإلى اللقاء.

سيدي الوطن!

لم أعد قادراً على الانحناء أمامك. ولم يعد بوسعي الاشتراك في حفلات توزيع الأوسمة على أبطالك العائدين. وحين تسللت إلى احد مقاعد المتفرجين، زجرني أحد الحرس، وأعادني من حيث أتيت، فتدحرجت من هراوته إلى أول قبر.. واختبأت.

هذا هو دوري. وهذا هو عملي، وقد أديتهما. لم أطالب بنزهة بين قبرين، ولم أطلب ضريحا خاصا بي، لأن موظفي دائرة تسجيل البطولة لم يعترفوا باسمي المبعثر بين الهواء والرمل. حين جاء الوزراء والسياح الأجانب وهواة جمع الآثار الحربية إلى جثة العاصفة النارية، كانت عواطفهم تتدفق على قطع الحديد المتناثرة.. أشلاء طائرات ودبابات. كانوا يجمعونها بلهفة تشبه لهفة امي وهي تجمع ما نسيه الحصادون في الحقول. وحين مروا، مصادفة، بأشلاء جسمي واسمي أبدوا إعجابهم بالتضحية واشمئزازهم من اللحم البشري، وقالوا: ليست هذه قطعا نادرة. ولا تصلح للمتحف والديكور والذكرى. وتركوني هناك.

•

هذا هو دوري يا سيدي الوطن. خادمك في الحياة هو خادمك في الموت بلا اجر. ومن كان فقيرا حيا يواصل عمله في خدمة الشهداء الأغنياء ميتاً. على حياتي السلام، وعلى جثتي ينزل الظلام. والموتى من شدة الكسل يلمّعون توابيتهم ويزخرفون أضرحتهم ويحولونها إلى مزار قومي. لا تظن أن هذا الأمر يهمني، فمن يكترث باسمه حيا لا يكترث بمستقبل ذكراه شهيداً. والأبطال، دائما، أحياء ومن عائلات عريقة.

من أين تعلمت هذه الحكمة؟ من الحبر الذي يعاملني، موضوعاً، ويهملني كائنا. أعرف أني صرت مادة للتلف. ولكن، هل كنت محتاجاً إلى هذه الحشرة يا سيدي الوطن؟. دخلت في عبارتك العجيبة وتداخلت. وصلت اليك وتوصلت. وصدقت انك لي، ولم أدرك أني اموت دفاعا عن شيء آخر.

لم أعرف أني أموت أبدا، لأنك محتاج دائما إلى هذه الوجبة. هكذا قالوا باسمك. وأنت لا تتكلم ولا تنطق، كأن صمتك القاسي عقاب المعذبين ليزدادوا عذابا من أجلك. هل كان عذابي خطأ أم حقا؟ إياك أن تعود إلى

الصمت مرة أخرى، لأني ما عدت قادرا على تفسيره والاندماج به. هل كنت تريد عذابا أكثر تعذيبا، أم كنت تريد عذابا أجمل!

•

وضعونا في خندق انتظار الموت سنين طويلة. وقالوا: هذا هو أمر الوطن. كنا قادمين من البيوت الطينية والأكواخ الخشبية... جياعا، وشبه عراة، ومرضى، ومعافين بك. كانت رفرفة العلم تغطينا. وكنا نكتب رسائل إلى الأهل البعيدين الذين صاروا بلا مصدر رزق، ننسى أن نصف أشواقنا إليهم لأن حبك كان يستنزفنا، ونحن عبيدك يا سيدي الوطن وعشاقك بلا وصل. وكنا نعتبر إشراك الزوجة والأطفال في القلب وهنا في الروح الوطنية، لأن التفكير بغير الخندق خيانة!

مرة تساءلنا عن لون الشمس في الخارج، فأتانا ضابط كبير من قسم التوجيه المعنوي ليوبخنا: «ان التاريخ كله يقف في انتظاركم. وآمال الوطن كلها تسكن بين أصابعكم والزناد، لقد شرفكم الله والوطن بحمايته، فكيف تسألون عن أمور دنيوية أخرى؟». شعرنا بثلج الخجل يا سيدي الوطن، ورضينا ان لا يكون لنا من نصيب فيك إلا بيوت من طين، وموت جميل لا يأتي، ومجاعة دائمة.

•

وتحولت إلى هاجس. تغلغلت فينا، يوماً يوماً، وتجنحت من شيء إلى حلم. ليست لنا مطالب، فأنت النعمة. وصرنا نقارنك بالجنة وكنت المتفوق أبدا كلما ازددنا شوقاً إلى تفجير المعجزة.

ما هي المعجزة؟ ما هي المعجزة؟ جاهزون للضغط على اللغم المربوط بالشريان.. جاهزون. ولكن الأمر لم يصدر. ولم تأمرنا يا سيدي. صارت القنبلة أثمن من القلب. وكنا ننتظر الأمر بالحرية! في انتظار هذا الامر تحولت، أيها الوطن، إلى وعد. متى يصدر الامر فنلتقي بالوطن السحري؟ تساءلنا وتساءلنا، لا رغبة في الخلاص من الخندق العاطل عن العمل، بل توقا إلى ملاقاتك، فاتهمونا بممارسة الشك وبالتدخل فيما لا يعنينا. هل صحيح، إنك لا تعنينا يا سيدي! وحرمونا من وجبات الغداء، فاشتد جوع أهلنا الذين كنا نرسل إليهم بعض قوتنا. وحرمونا من السلاح الذي سنعانقك به ونموت. فصار حرماننا اثنين، وعذابنا موتاً، موتاً قبيحاً يا

سيدي الوطن!

•

انتهت العقوبة. وصدر أمر يقول إنك محتاج إلى أبنائك الشجعان. وإنك جاهز لإصدار الحكم علينا بالموت الموعود. هل كنت تتكلم حقا يا سيدي الوطن!

هل كنت توقع على أوراق رسمية بهذه اللغة الفخمة؟. وإذا كنت تتقن الكتابة والكلام، فلماذا لم تكتب الينا مباشرة؟ لم تأت الينا وتخاطبنا؟ هل كنت تشعر أنك بحاجة إلى مترجمين؟ لسنا أميين إلى هذا الحد يا سيدي!. ومتى كنت تتسلل من شراييين قلوبنا وتذهب إلى المكتب لتخاطبنا بالورق الرسمي؟. هل أنت محتاج، حقا، إلى كل هؤلاء الموظفين! وهل طلبت منهم أن يضطهدونا من أجل الطاعة؟. هل أنت هم؟ هل هم انت!. وهل ثمة طاعة اكبر مما نحن فيه يا سيدي! لم نأخذ منك شيئا، ولم نطالبك بشيء إلا السماح لنا بالذهاب إلى ملاقاتك بالموت.

•

وطن.. وطن ولا وطن، حتى أذنت لنا أخيرا بالخوض في بحيرة النار. اليوم ولدنا – هكذا قلنا ونحن نرمي بأجسادنا وبحرمان العصور إلى قلب البركان. خذ كل شيء! خذ ما تبقى يا سيدي خذ!. من بخار الصحراء نشرب، ومن قشور الصخور ناكل لتكوين مزيد من دم نقدمه لك. خذ كل شيء يا سيدي! فقد التقينا وتعانقنا وتخاطبنا بلا وساطة. وعرفنا، مرة واحدة، أنك قابل للملامسة، وصغير، وجميل، وفينا.

سنأخذك إلى أكواخنا ونأكل الجراد والبصل معا، وننام معا. ثم نصحو في أول صباح بخفة ورشاقة لنبنيك وأنت مرتاح. الذين يحررونك هم الذين يبنونك يا سيدي الوطن. وستكون مثلنا ولنا جميعا.

لقد عثرنا على اللغة المشتركة البسيطة البسيطة كاسمك. لست فخما ولا مخيفا ولا بعيدا كما قالوا. ولا تحتاج إلى وساطة وبوليس كما قالوا. سنأخذك معنا إلى البيوت الفقيرة وتكون إقامتنا دائمة.

ولكن، دعنا نموت بكثرة الان. انتظر قليلا لكي نموت كثيرا، فتكون لنا تماما تماما.. لا للغزاة ولا للموظفين الذين كانوا يزورون توقيعك وصورتك وصوتك. عفوا، لا وقت لهذا الان، فما زال في شراييني قطرة دم، وأنت

للشهداء.

•

وانتهى دمي. اكتملت علاقتي فتكاملت. توحدت فانتهت وحدتي. أين أنت الان، وأين أنا؟ أكاد اقول.. وأكاد أقول:

كأني لم أمت، وكأنك لم تحيَ. ذهبت إلى المستقبل، فذهبت إلى الماضي. ذهبت للتحرر، فذهبت للتجمد. أكاد اصرخ، وأكاد أصرخ: لماذا تتركني يا سيدي الوطن؟ لماذا يشقنا الوداع في أوج الوصول؟

لماذا تخرجني منك لتعود إلى المكتب وتخاطبني بهذه اللغة التي خضت الحرب لأدمرها؟. ولماذا لم تذهب إلى بيوتنا وتأكل معنا وتنام؟.

لماذا تعيدني إلى دوري السابق. ولمن أقدم شكواي؟

لم يجف دمي بعد..

ولم تعثر جثتي على قبرها بعد..

وها أنت تعود إلى وظيفتك اليومية وتبصق عليَ.

ألا تغسل يديك من دمي أولاً، لتكون قادراً على كتابة الأوامر ضد دمي!

لقد حولتني، في لحظة، إلى جوهر. أندمت.. فأعدتني إلى حالتي السابقة.. إلى قشرة؟.

هل تستخدم حياتي وموتي من أجل حساب، وأنا أعطيك بدون حساب!

وهل انتهت رحلتك، لتخلعني منك كحذاء عتيق غير صالح للاستعمال!

لم أكن ألعب حين ذهبت إلى تجديد حياتك بموتي، يا سيدي الوطن، لم أكن ألعب. ولا أريد أن أصدق ما يقوله الوشاة. يقولون أنك تلعب بدمي الآن. ولا أصدق. فالوطن لا يكذب ولا يلعب يا سيدي الوطن. فمن يكذب ويلعب اذن!.

هل أنت أسير وشهيد مثلي؟ هل أنت مثلي!.

وهل نحن توأمان، في الخدمة، دون أن أدري!.

•

لمن أقدم شكواي؟ جئت أمس لأزورك، فصدَّني حراسك، وقالوا: عُد

إلى واجبك ودورك. فالشهداء لا يتدخلون بالأمور العامة. وليس للشهداء دخل بقضايا الدولة! ماذا يكونون اذن؟

أين أنت، ومن أنت؟ أخشى ان تكون مثلي. لا، لا أريد أن أصدق أنك مثلي. وأخشى أن أصدق أن تكون مثلهم. لا، لا أريد أن أصدق أنك مثلهم. فمن أنت.. وأين أنت؟ هل عادوا إلى وقفتهم الطويلة المدججة بيني وبينك؟ هل عادوا إلى ترميم الحاجز بيننا بعدما توحدنا يا سيدي الوطن؟ ومتى فعلوا ذلك؟ عندما كنت مشغولاً بالغوص فيك؟ وكانوا يتربصون باللحظة التي أغمضت فيها عيني على صدرك الضيق. هل اخترقوا تلك البرهة؟.

متى تصل شكواي يا سيدي؟ وما هو عنوانك.. أو: أين هي زنزانتك أين هي؟. لم أتعب من البحث عنك، ولكن حراس الحاجز يشددون الحصار. سأعود إلى قبري الضائع، وتعود إلى حريتك الضائعة. سأعود، لأفكر بك بطريقة أخرى، لأتوخد بك بطريقة أخرى.

ولكن، أعطني يا سيدي إطلالة واحدة من زنزانتك المخبأة في الملفات. أعطني يا سيدي صيحة واحدة من مكانك المجهول. وحين تقرأ رسالتي لا تغضب علي، لأني أحبك. وأعرف الآن أنك مثلي، ولكن عمرك أطول، ومفاجآتك أعظم. ولن أغترب عنك.. لن أغترب، لأن الموتى لا يغتربون عن التراب يا سيدي الوطن.

المخلص

ابنك الذي نسي اسمه

حين لفظ اسمك